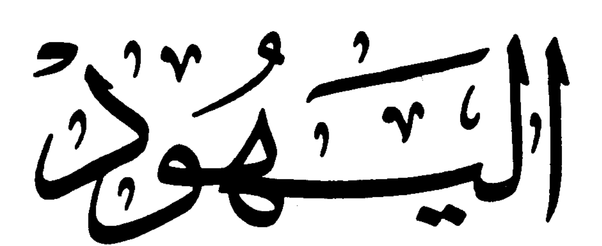
الدكتور محمد أديب الصالح



اليهود

في القرآن والسنة

"بعض من خلائقهم"

دراسة للنصوص، في محاولة لاستلهام العبر والدروس

القسم الثاني



بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

٢١٤,٢٩٦

٨١٩ ص صالح محمد أديب

اليهود في القرآن والسنَّة : بعض من خلائقهم/ محمد أديب الصالح - ط ١ -

الرياض : دار الهدى، ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٣ م. مج ٢؛ ٢٤ سم.

ردمك ٨ - ٠١ - ٦٨٩ - ٩٩٦٠ (مج ٢)

× - ٠٠ - ٦٨٩ - ٩٩٦٠ (المجموعة)

١ - الإسلام واليهودية ٢ - اليهود في القرآن أ - العنوان

رقم الإيداع ١٤/٠٤١٢ - تاريخ ٣/ ٤/ ١٤١٤ هـ.



دار الهدى للنشر والتوزيع

الرياض - شارع طارق بن زياد

شرق مستوصف المرقب - هاتف ٤١٢١٩٧٤

ص.ب ٢٥٥٩٠ - فاكس ٤١٢٢٧٨٣

اليهود في القرآن والسنة

"بعض من خلائقهم"

القسم الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ . . .﴾

سورة البقرة ـ الآية ١٠٥

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

سورة آل عمران ـ الآية ٢١

لا تقولوا مثلهم سمعنا وعصينا

أشرت غير مرة فيما مضى من القول ، إلى أن الكلام على اليهود في الكتاب والسنة، أخذَ حيِّزاً مرموقاً ، كيما تكون الأمة ـ والله أعلم ـ على قدْرٍ من التنبه إلى ما يدفع عنها الأذى ، ويعود عليها وعلى الإنسانية بالخير، إن هي تبصّرت فيما ورد في هذا الشأن، وعملت على الإفادة منه ؛ والحِكَمُ وراء ذلك أيضاً كثيرة وفيرة .

وأود أن أؤكد الآن ، ما تعنيه المساحة التي أعطيت للتحذير من تقليد أهل الكتاب بعامة ، واليهود بخاصة ، من الوقوع في ارتكاب ما ارتكبوه ؛ فالناظر في كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام : يطالعه من ذلك الشيء الكثير . جاء ذلك صريحاً في بعض المواطن ، ويفهم بالدلالة والفحوى في مواطن أُخر .

وعلى هذا المحور : نقرأ في سورة البقرة بعضاً مما جاء في شأن بني إسرائيل وإعراضهم عن الحق، ومخالفتهم لما جاء به موسى عليه السلام ، في خطاب لليهود في عصر النبي ﷺ ، حتى كأنهم هم الذين فعلوا ذلك ، لأن الطينة واحدة ، والمنهج المنحرف واحد ، والخَلَفُ راض بصنيع من سلف . نقرأ في هذه السورة المباركة قول الله تعالى : ﴿ **ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين** ﴾ .

هكذا كان موقفهم مما أمروا به ومما نهوا عنه ، أمروا بأن يأخذوا ما آتاهم الله

بقوة ويسمعوا ؛ فما كان منهم إلا أن قالـوا : سمعنا وعصينا ، أجل كان هذا شـعارهم في مـواجهة أحكـام الله ، وما جـاء هـم من مـوسى عليـه الصلاة والسلام.

وفي ضوء ما يؤكده المنهج القرآني ، مـن تحذير الأمة المسلمة ، من الوقوع فيما وقع فيه هؤلاء الأنـاسي : نقع في السنة المطهرة على التحذير مـن الوقوع فيما وقعوا فيه من قولهم : ﴿ سمعنا وعصينا ﴾ وأن الـواجب مواجهة ما يأتي عن الله ورسوله ﷺ بقول: ﴿ سمعنا وأطعنا ﴾ قولاً وعملاً ، دونما تحول عن السلوك المتَّسق مع السمع والطاعـة؛ وذلك عنوان الإيمان الصادق الذي لا تشوبه شائبة .

ونظل مـع سورة البقرة ، لنقـرأ في خواتمها قـول الله تعالى : ﴿ **لله ما في السمٰـوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكـم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير** ﴾ ففي هذه الآية يخبر الله جل شأنه أن له ملكَ السماوات والأرض ومـا فيهن وما بينهن، وأنه العليم بما فيهن ، لا يُحجَب علمـه عن الظواهر ، ولا تخفى عليه خـافية من السرائر والضمائر ، مهما دقَّـت وأمعنت في الخفـاء ، كما أخبر سبحـانه أنـه سيحاســب عباده على ما فعلوه ، ومـا أخفوه في صدورهم كما قـال تعالى : ﴿**قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبـدوه يعلمه الله ويعلم ما في السماوات وما في الأرض والله على كـل شيء قديـر** ﴾ وكما قال جـل شأنـه : ﴿**يعلم السر وأخفى**﴾ والآيات في ذلك والأحاديث كثيرة جداً .

وقد أخبر في هذه الآية التي نحن بصددها من سورة البقرة ، بما هو زيادة على العلم ، وهو المحاسبة على ذلك ، وكان تخوّف الصحابة رضي الله عنهم شديداً من هـذا ؛ فقد ثبت أنه لما نزلت هذه الآيـة ، اشتد ذلك عليهم رضي

الله عنهـم، وخافـوا منها ، لما تحملـه مـن محاسبةِ الله لهم على جليـل الأعمال وحقيرهـا . ولا يخفـى أن هـذا مـن عميـق إيمانهم وإيقـانهم ، ومخافتهـم الصادقـة مـن الله عز وجـل ، قال الإمـام أحمد رحمه الله في مسنده : حـدثنا عفان قال : حـدثنا عبدالرحمن بن إبـراهيم قال : حدثني أبـو عبد الرحمن ـ يعني العلاء ـ عـن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنـه قال : « لما نزلت على رسول الله ﷺ : ﴿ **لله ما في السمٰوات وما في الأرض وإن تبدو ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير** ﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب وقالوا : يارسول الله كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة ، وقد أنزلت عليـك هذه الآية ، ولا نطيقها . فقال رسول الله ﷺ : أتـريدون أن تقـولوا كما قـال أهـل الكتابين مـن قبلكم : سمعنـا وعصينـا ؟ بل قـولوا : سمعنـا وأطعنـا غفرانـك ربنا وإليـك المصير . فلما اقترأها القـوم وذلَّت بها ألسنتهم ، أنزل الله في إثـرها ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ...** ﴾ فلما فعلوا ذلك، نسخها الله فأنزل الله ﴿ **لا يكلف الله نفسـاً إلا وسعها لها مـا كسبت وعليها ما اكتسبت ...** ﴾ ».

وأصل الحديث في أن الآية التي تلي ، نسخت حكم التي قبلها : موجود عند البخاري : ورواه مسلم متفـرداً به من حديث يزيـد بن زريع عن روح ابن القاسم عن العلاء عن أبيه عـن أبي هريرة ، فذكر مثله . ولفظه : « فلما فعلوا ذلك نسخها الله فـأنزل الله عز وجل : ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا** ﴾ قال: ﴿**ربنا ولا تحمـل علينا إصراً كما حملته على الـذين مـن قبلنا** ﴾ قال : نعـم ،

﴿ربنا ولا تحمِّلنا مالا طاقة لنا به ﴾ قال : نعم ﴿ واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ قال : نعم »: وفي رواية أخرى للإمام أحمد من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «لما نزلت هذه الآية ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ قال : دخل قلوبَهم منه شيء . لم يدخل قلوبهَم من شيء غيره . قال : فقال رسول الله ﷺ : « قولوا سمعنا وأطعنا وأسلمنا » ؛ فألقى الله الإيمان في قلوبهم ، فأنزل الله ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ﴾ إلى قوله ﴿فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ ورواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة وأبي كريب وإسحاق بن إبراهيم ثلاثتهم عن وكيع وزاد « ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ قال : قد فعلت . ﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ﴾ قال : قد فعلت ﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ قال : قد فعلت ﴿ واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ قال : قد فعلت . وفي رواية للترمذي مثله وقال : فأنزل الله ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون﴾ الآية وزاد فيه ﴿ ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ..﴾» .

هكذا خاف الصحابة ، من أن لا يطيعوا شيئاً تنزَّل في كتاب الله تعالى ، وهم حريصون على العمل بما يتنزل ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، وخاف رسول الله أن يقعوا فيما وقع فيه اليهود والنصارى من قولهم: سمعنا وعصينا . فقال لهم: « قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » فقالوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . فرحمهم الله بصدقهم . قال تعالى:﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته

وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ ونسخ حكم الآية الأخرى بقوله تعالى : ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ...** ﴾ إلى آخر الآية .

وهذه الواقعة ـ في دلالتها على الاحتراس من الوقوع في الهوّة السحيقة التي وقع فيها أهل الكتابين بعامة واليهود بخاصة ـ تتجاوز حدود الزمان والأشخاص ، لتكون درساً للأمة الإسلامية، في أن تبنيَ وجودها الذاتي على هدي الكتاب العزيز والسنة النبوية المطهرة ، وأن تحذر شديد الحذر من الوقوع في شرك التقليد لمن أعمى الله بصائرهم ، وزادهم غضباً على غضب ، وهم في الآخرة هم الأخسرون .



من مقومات الوجود الذاتي لأمتنا ـ كما تدل النصوص ـ البعد عن التقليد الأعمى بعـامة ، وعن تقليد مـن يتمرغون في غضب الله ، وتحكمهـم الأهواء الضالَّة بخاصة . مـن معالم ذلك ما وقفتنا عليه خواتم سـورة البقرة بدءاً من قوله تعالى : ﴿ لله ما في السموات وما في الأرض ... ﴾ إلى آخر السورة حيث شق على الصحـابة أن تكـون هنالك محاسبـة ، حتى على مـا تخفيه السرائر والضمائر ، فهرولوا سراعاً ــ وهم الوقافون عند حـدود الله والمثنيّ عليهم في القرآن الكريـم ـ إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وشكـوا ضعفهم عن تحّمل هـذا الأمر الخطير ؛ لأنهم خافـوا سوء العـاقبة والعياذ بـالله . ولكن الـرسول ــ ويانعـم المربي هو ــ خاف عليهـم أن ينزلقـوا في تقليد اليهـود والنصارى ، فيقـولوا في مـواجهة أمـر الله ورسـوله : ســمعنا وعصـينا ، وأن عليهم ــ بوصفهم مـؤمنين مصدقين بأن ما عنـد الله هو الخير ـ أن يقـولوا : سمعنا وأطعنا وسلّمنا ؛ وذلكم هو الموقف الذي يقتضيه الوجود الذاتي لخير أمة أخرجت للناس .

لقـد حذرهـم الـرسـول الكريـم أن يقعـوا في تقليـد المغضوب عليهـم والضالين ، ودلّهم على مـا هو الأقـوم والأهدى سبيـلاً . وكانـوا رضوان الله عليهم عند الذي وجههم إليه رسـول الله عليه الصلاة والسلام ، فقد أعلنوا مـا يدل على صـدق إيمانهم بالله ومـلائكته وكتبـه ورسله وقـالوا : سمعنـا وأطعنـا غفرانـك ربنا وإليـك المصير ، فـأثنى الله عليهـم ، وخفف عنهـم، وزادهـم من فضله ، ونزل ما نسخ الحكم الذي جاءت به الآية السابقة .

ودلَّ على ذلك من السنة : ما ثبت من الروايات عند أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وغيرهم ، والتي أوردنا بعضها من قبل . ومن الخير أن نثبت الرواية ـ كما جاءت عند الإمام مسلم ـ ففيها ما يعطي هذه القضية الكبرى ما يعين على مزيد من التبيُّن .

فقد روى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ لله ما في السمٰوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب وقالوا: أي رسولَ الله ، كلفنا من الأعمال ما نطيق ، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، فقال رسول الله ﷺ : أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ؛ فلما اقترأها القوم ، وذلَّت بها ألسنتهم أنزل الله في إثرها ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير** ﴾ فلما فعلوا ذلك، نسخها الله تعالى فأنزل الله عز وجل ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا** ﴾ . قال : نعم ﴿ **ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا** ﴾ قال: نعم ، ﴿ **ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به** ﴾ قال : نعم ﴿ **واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ .

ونتابع الرحلة مع مقولة التحذير من سلوك السبيل المعوجة الظالمة ، التي سلكها أهل الكتاب ـ وبخاصة اليهود ـ لتطالعنا الآية الخامسة بعد المائة من سورة آل عمران بقول الله جل ثناؤه خطاباً للمسلمين : ﴿ **ولا تكونوا**

كالـذين تفرقـوا واختلفوا من بعـد ما جـاءهم البينات وأولـئـك لهم عذاب عظيم ﴾ .

والذيـن نُهي المسلمون عـن التشبه بهم ؛ تفرقـاً واختلافـاً في دين الله ، وأمْرِه ونهيه ـ من بعد ما ظهـرت لهم حجج الله على الحق ، فعدلوا عن ذلك إلى الباطل ، ونقض العهود المواثيق ، والمخالفة عن أمر الله ورسله .. هؤلاء الذيـن نُهي المسلمون عن الانزلاق فيما انـزلقوا فيه ، هم اليهـود والنصارى . وهذا مـا عليه جمهـور المفسرين . وقد جـاءت الروايات عـن أهل التـأويل بذلك ، فقد روى ابن جرير الطبري بسنده عن الربيع في قوله تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات﴾ قال : هم أهل الكتاب، نهى الله أهل الإسلام ، أن يتفرقوا ويختلفوا ، كما تفرق واختلف أهل الكتاب ، قال الله عز وجل : ﴿ **وأولئك لهم عذاب عظيم** ﴾ .

كما روى أبو جعفر رحمه الله عن الحسن مثل ذلـك حيث قال: هم اليهود والنصارى .

فالمراء والخصومات في دين الله ، مع الإعـراض عن البينات والأدلة ، كل أولئـك يكـون سببـاً في الهلاك ؛ لأن حقيقـة الـديـن تُحجَـب عـن أولئـك المعـرضين المتمارين المتخـاصمين ، ويقـوم بـديلاً عنهـا الهوى والضـلال ، وينتج عن ذلـك أن يحلَّ الاختلاف والفرقة، محل الاجتماع ووحـدة الكلمة ؛ وتسوء العـاقبة في الدنيـا والآخرة ، قال ابـن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية التي نسعـد بصحبتها : أمر الله جل ثناؤه المؤمنين بالجماعـة ، فنهاهم عن الاختلاف والفرقة ، وأخبرهم أن من قبلَهم هلكوا با لمراء والخصومات في دين الله .

في ضوء تلك الروايات : قال شيخ المفسرين رحمه الله : (يعني بذلك جل

ثناؤه : ولا تكونوا يامعشر الذين آمنوا ﴿ **كالذين تفرقوا** ﴾ من أهل الكتاب ﴿ **واختلفوا** ﴾ في دين الله وأمره ونهيه ﴿ **من بعد ماجاءهم البينات** ﴾ من حجج الله فيما اختلفوا فيه ، وعلموا الحق ، فتعمدوا خلافه ، وخالفوا أمر الله ونقضوا عهده وميثاقه جراءة على الله ، ﴿ وأولئك لهم ﴾ يعني ولهؤلاء الذين تفرقوا واختلفوا من أهل الكتاب ، من بعد ما جاءهم البينات «عذاب» من عند الله «عظيم» ثم قال أبوجعفر : يقول جل ثناؤه : فلا تتفرقوا يامعشر المؤمنين في دينكم تفرُق هؤلاء في دينهم ، ولا تفعلوا فعلهم، وتستنُّوا في دينكم بسنتهم ، فيكون لكم من عذاب الله العظيم، مثل الذي لهم) .

ويبدو أن ما نهي عنه المؤمنون ، من أن يكونوا كاليهود والنصارى الذين اختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ،لا يقتصر على العقائد ، ولكنه يشمل التزام الأحكام التي يكلف المؤمنون أن يعملوا بها ، ويطوّعوا سلوكهم لها ، فلا يختلفوا ذلك الاختلاف الذي تنحسر معه تلك الأحكام عن المجتمع . يتضح ذلك إذا لاحظنا ، أن الآية الكريمة التي نحوِّم حول معانيها وهي قوله تعالى : ﴿ **ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم** ﴾ . قد سُبقت بقوله جل وعلا في الآية الرابعة بعد المائة من سورة آل عمران :﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾ . وذلك بعد الذي تقدم من وجوب الاعتصام بحبل الله الذي جعلهم بنعمته إخواناً ، بعد أن كانوا أعداءً متفرقين .

من هنا نجد أن الله تبارك وتعالى ، يريد لهذه الأمة أن تتوحَّد على الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله »، وأن تجتمع أبداً على تحكيم شريعة

وقعت فيها وقع فيه أولئـك الذين دبَّت فيهم الفرقة والاختـلاف ، من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم .

في ضـوء هذا الشمـول : نقرأ مـا جاء في سـورة المائدة ـ بـدءاً من الآيـة الثامنة والسبعين من قـول الله جل ذكـره ـ : ﴿ **لُعن الـذين كفروا مـن بني إسرائيل على لسان داود وعيسـى بن مريم ذلك بما عصوا وكـانوا يعتدون . كـانـوا لا يتنـاهــون عـن منكـر فعلـوه لبئــس مـا كـانــوا يفعلـون** ﴾ .

هكذا يخبر ربنا تبارك وتعالى ، أنه منذ دهر طويل ، لَعن الكافرين من بني إسرائيل ، فيما أنزله على داود نبيه عليه السلام ، وعلى لسان عيسى بن مريم، وذلك بسبب عصيانهم واعتدائهم على خلقـه ، دون خوف من الله أو مراقبة ليوم الحساب، قال العوفي عـن ابن عباس رضي الله عنهما : لعنوا في التوراة والإنجيل وفي الزبور وفي الفرقان .

ثم بين الله حالهم فيما كـانوا يعتمدونه في زمـانهم ، من أمر إبراز المخـالفة عن أمـر الله ، وعدم التنـاهي عن المجـاهرة الظـالمة بالمنكـرات والمعاصي ، فقال تعالى: ﴿ **كانوا لا يتناهـون عن منكر فعلوه لبئس ما كـانوا يفعلون** ﴾ يستعلن المنكر في المجتمع ، فلا ينهى عنـه ناهٍ ، ولا يغار على دين الله وشرعه غيور . فلا بدع أن تحقَّ عليهم اللعنة من قـديم، على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

ولنا عودة إلى مـزيد من عطاء هاتين الآيتين إن شـاء الله ، مع الإشارة إلى أن هذه الكلمات النـورانية ، تحمل التحـذير البالـغ للمسلمين أن يقعوا فيما وقع فيه بنوإسرائيل ، كما تشعر ببعض من أسباب الواقع الذي تعيشه أمتنا ، وذلك واضـح ـ كما سنرى بعـون الله ـ في صريـح هدي النبي عليـه الصلاة والسلام .

وَاقعنَا .. وتقليدهم فيما لعنُوا من أجله

ما يزال الحديث موصولاً بالكلام على ما به يتحقق الوجود الذاتي للأمة ، وذلك بأن تكون على الجادة في التزام ضوابط الشرع ، والبعد عن كل ما يوقع فيما وقع فيه كفرة أهل الكتاب ؛ أولئك الذين لا يرجون لله وقاراً ، وأن تقليد من خالفوا عن أمر الله، وتجافت أعمالهم عن دعوى أنهم أهل كتاب سماوي، مرفوض رفضاً باتاً ، والمخالفة عن ذلك ، لا تحمد عقباها في قليل أو كثير . والعهد قريب باصطحاب قول الله تبارك وتعالى في سورة آل عمران : ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم**﴾ . وواضح ما تحمل الآيات من مقومات لذاتية الأمة ووجودها الحقيقي ، وما يجب أن تحذره من التردي فيما تردى به اليهود والنصارى من تفرق واختلاف يسببان الهلاك في الدنيا والعذاب العظيم في الآخرة .

وليس بدعاً أن يقود الحديث عن ذلك ـ والآيتان الكريمتان ، يشمل التحذير فيهما ما يكون من أمر العقائد ، وما يكون من أمر التكاليف والأحكام ـ إلى ما جاء من خصال ذميمة لكفار بني إسرائيل ـ لعنوا من أجلها ـ هي على النقيض مما أمر به المسلمون ؛ فقد أمر المسلمون بالوحدة على كلمة الله ، والدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ لأن ذلك طريق الفلاح ، إذ أن الدعوة إلى الخير ، تبليغ لرسالة الإسلام التي تحمل الهداية والنور للعباد . وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حفظ

لكيان المجتمع المسلم والدولة المسلمة ، وعاقبة ذلك التمكين والمنعة في الدنيا ، والفوز العظيم في الآخرة .

والخصال الذميمة التي نعنيها بشأن بني إسرائيل ، والتي كانت سبباً في لعنهم وطردهم من رحمة الله : هي ما جاء في سورة المائدة ، بدءاً من الآية الثامنة والسبعين ، من قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك** .. ﴾ **الآيتان** . فالعلاقة ـ والله أعلم ـ وثيقة بين ما جاء في قوله تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .. ﴾ الآية ، وما جاء في الآية التي تليها من النهي عن التشبه بأولئك الذين تفرقوا واختلفوا من بعد جاءتهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ... العلاقة وثيقة بين الآيتين الكريمتين في سورة آل عمران ، وبين ما جاء عن الذين كفروا من بني إسرائيل في سورة المائدة ؛ فإذا انزلق المسلمون إلى ما انزلق فيه أولئك الكفرة اليهود ، فمعنى ذلك أنهم واقعون في الفرقة والاختلاف ؛ على ساحة العقيدة ، وعلى ساحة ما خوطبوا به من تكاليف .

فإذا كان الذين كفروا من بني إسرائيل ، قد لعنهم الله منذ أمد طويل ـ على لسان نبيه داود ونبيه عيسى بن مريم ، بسبب عصيانهم ، واعتدائهم على الناس بشتى صنوف الاعتداء والأذى .. ـ فالتحذير قائم للأمة المسلمة أن تقع فيما وقع فيه هؤلاء ، أو أن تسلك أيَّ سبيل توصل إلى هذه الحمأة الآسنة والعياذ بالله ﴿ **لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** ﴾. ذلك اللعن بسبب عصيانهم ، واعتدائهم على الخلق .

والطامة الكبرى : أنهم كانوا يرضون بالمعصية والانحراف عن دين الله ،

فلا يتناهون عن منكر ، ولا يأتمرون بمعروف . وهنا ـ كما هو واضح ـ يكاد يكون التحذير لأمة الشهادة على الناس من الانحدار ، إلى ما انحدر إليه هؤلاء المغضوب عليهم ، أشد وأشد ؛ لأن الله تعالى خاطب المسلمين بقوله: **﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وألئك هم المفلحون﴾**. وأولئك الأناسي كانوا يسلكون المسلك النقيض ، الأمر الذي أودى بهم إلى غضب الله والطرد من رحمته .

وهكذا يحمل هذا البيان عن هذا الصنف من الناس ، والسبب الذي جعل اللعنة تحلّ عليهم ، تحذيراً أيّما تحذير وتنبيهاً أيّما تنبيه ، فإذا ارتكبت الأمة ما ارتكبوه ـ ولبئس ما كانوا يفعلون ـ فذلكم هو البلاء المبين .

روى الإمام أحمد في مسنده عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ: « لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي ، نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم في مجالسهم ، قال يزيد : وأحسبه قال : في أسواقهم ، وآكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ﴿ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس فقال : لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً » .

وأنت ترى في هذا الحديث: كيف أن النبي ﷺ حدّد الطريق للمسلمين؛ فذاتية الأمة ووجودها الحقيقي ، في أن تكون على الجادة ؛ وقوفاً عند أمر الله ورسوله ، وأن تكون بعيدة كل البعد عما وقع فيه أولئك المغضوب عليهم ؛ والرسول ﷺ بعد أن ذكر ما ذكر عن بني إسرائيل، قال بلغة الجزم والردع ، بادئاً بالقسم : «لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً » .

وانظر إلى شديد اهتمامه بهذه القضية التي تبدو بالغة الخطورة ، انظر إلى ذلك من خلال قول راوي الحديث : «وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس »

فقال : « لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً » وقال أبوداود : حدثنا عبدالله بن محمد النضيلي قال: حدثنا يونس بن راشد عن علي بن بذيمة عن أبي عبيدة عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل : كان الرجل يلقى الرجل فيقول : ياهذا ، اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد ، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيلَه وشريبَه وقعيدَه . فلما فعلوا ذلك ، ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم قال :﴿ **لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم** ﴾ إلى قوله : ﴿فاسقون﴾ ثم قال : « كلا والله لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ،ولتأطرنه على الحق أطراً ، أو لتقصرنَّه على الحق قصراً » .

ومما يؤكد حرص الرسول ﷺ على هذا الذي نرى ، والحيلولة دون الأمة ودون أن تتشبه باليهود ، فيأخذها من العواقب الوخيمة ما أخذهم ، ما نجد في روايات أخر ؛ كالذي روى ابن أبي حاتم بسنده إلى ابن مسعود أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : « إن رجلاً من بني إسرائيل ، كان إذا رأى أخاه على الذنب نهاه عنه تعذيراً . فإذا كان من الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وخليطه وشريكه ـ وفي رواية وشريبه ـ .فلما رأى الله ذلك منهم ، ضرب قلوب بعضهم على بعض ، ولعنهم على لسان نبيين كريمين داود وعيسى بن مريم . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، ثم قال رسول الله ﷺ : والله لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر ولتأخذنَّ على يد المسيء ولتأطرنَّه على الحق أطراً ، أو ليضربنَّ الله قلوب بعضكم على بعض أو ليلعننَّكم كما لعنهم» .

ترى هل نملك الشجاعة الأدبية في النقد الذاتي، فننظر في الأسباب

الحقيقية التي أوصلت أمتنا إلى ما وصلت إليه ؟ وما هي النسبة بين الواقع ، وبين ما أراد رسول الله ﷺ ـ وهو الذي لا ينطـق عن الهوى ـ أن تكون عليه أمة الإسلام من استمساكٍ بالحق الذي نزل به الكتاب، وبـعدٍ عن تقليد من حلّ عليهم غضـب الله ولعنـته إلى يـوم الدين ؟ .



المكابرة وقسوة القلب

في متابعة لما يعين على مزيد من الإدراك للأهمية البالغة ، التي أعطاها الإسلام للوجود الذاتي للأمة ، وتحذيرها من تقليد أهل الكتاب، والوقوع فيما وقعوا فيه من الضلالة والعماية ، وبخاصة اليهود ، سعدنا فيما مضى بصحبة آيتين من سورة آل عمران وآيتين من سورة المائدة. فأما آيتا سورة آل عمران: فهما بدءاً من الآية الرابعة بعد المائة قول الله تباركت أسماؤه : **﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾**.

وأما آيتا سورة المائدة : فهما بدءاً من الآية الثامنة والسبعين قول الله جل ذكره : **﴿ لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون ﴾**.

والنظر في تلكم الآيات الكريمات ، يقود إلى تبيّن الارتباط الوثيق ، بين ما جاء في سورة آل عمران ، وبين ما جاء في سورة المائدة ، وذلك على ساحة الكشف عن حمأة الضلال الفكري والسلوكي ، التي وقع فيها أولئك الذين بدَّلوا نعمة الله كفراً ، وتحذيرِ المسلمين من سلوك أيِّ سبيل توصل إلى ما وصلوا إليه ؛ من تفرق و اختلاف في الدين ، من بعد ما جاءهم البينات ، فحقت عليهم كلمة الله بالعذاب العظيم ، و الانحراف عن طاعة الله والولوغ في معاصيه ، والاعتداء على الناس ، والتحول عن الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر ـ كالذي حصل من بني إسرائيل ـ فكان سبباً في لعنهم وطردهم من رحمة الله تعالى في الدنيا والآخرة ، إذ أن المسلمين ، مطلوبٌ منهم أن يكونوا على غير تلك الشاكلة ، مطلوب منهم ــ وهذا غاية التكريم ـ أن تكون منهم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون با لمعروف ، وينهون عن المنكر ، وذلكم طريق فلاحهم في الدنيا ، ويوم الدين ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون**﴾ أما الوقوع في مهواة التقليد ، تقليدِ اليهود الظاهرين منهم والأخفياء ؛ بما ارتكبوا ويرتكبون من ضلالات ، على صعيد العقيدة والعمل والسلوك : فتلك طريق تتنافى مع الطريق الموصلة إلى الفلاح، وهي طريقٌ، من ركائزها : حملُ أمانة الإسلام بصدق وعزيمة ، والدعوةُ إليه رسالةً تُسعد بني الإنسان في دنياهم وآخرتهم ، وتصون المجتمع عن الأذى ؛ وذلك بالأمر با لمعروف والنهي عن المنكر ، كيما تكون شريعة الله هي المحكَّمة الآمرة الناهية ، ومنهجُ السلوك النابعُ من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، هو المنهجُ الذي ينتظم حركة المسلمين .

ونخطو خطوة أخرى مع المقولة المباركة ، مقولةِ التحذير من اتباع السبل التي سلكها المغضوب عليهم والضالون ، فنالهم من لعنات الله وعقابه وغضبه ما نالهم ... نخطو خطوة أخرى ، لنقرأ في سورة « الحديد » تحذيراً بالغاً من الوقوع في أمر يتصل بأعمال القلوب ، وحركة النفس من داخلها، ألا وهو قسوة القلب ـ والمعاذ الله ـ وهي الطامة التي حاقت بأهل الكتاب من اليهود والنصارى ؛ فا لمطلوب من أهل الإيمان : أن يعملوا على أن تكون قلوبهم خاشعة أبداً لذكر الله وما نزل من الحق ، لكيلا يصيبهم ما أصاب اليهود والنصارى الذين أوتوا التوراة والإنجيل ، فطال عليهم الأمد، فأغوتهم الشياطين ، وقعدت بهم أهواؤهم وشهواتهم عن العمل الصالح

والخشوع لذكر الله ، فرانت على قلـوبهم القسوةُ وكثير منهم فاسقون ؛ ذلك لأن القسـوة إذا رانـت على القلـب ، وأحكمت سلطـانها عليـه ، فـلا خير يرتجى، والفسـقُ والخروج على دين ا لله كائن لا محالـة . وما نعنيه مـن سورة الحديد هو ما جاء في الآية السـادسة عشرة من قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **ألم يأن للـذين آمنوا أن تخشـع قلوبهم لذكر الله ومـا نزل من الحق ، ولا يكـونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون**﴾ .

يقول ربنا جل شأنه : أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله ، أي أن تلين عند الذكر والموعظـة ، وسماع القرآن بوعده ووعيده ، وترغيبـه وترهيبه فتفهمَه فهمَ تدبـرٍ وتذكُّر ، وتسمع له وتطيعه . وجـاء النهي للمؤمنين بعد هذا ، عن أن يتشبهوا بالذين حُمِّلوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى ، فلما طال عليهـم الأمد ، زاغوا عـن طريـق الهدى فأزاغ الله قلوبهم ، فبـدلوا كتاب الله الـذي بأيـديهم ، واشتروا به ثمناً قليـلاً ، ونبذوه وراء ظهـورهـم ، وأقبلوا على العبث الذي اخترعوه من عند أنفسهـم ، والآراءِ المختلفة الضالة والأقوالِ المؤتفكة التي قوامُها مجافاة الحق ، والانحراف عن منهج الله .

ولم يقفوا عند هذا الحد ، بل اتخذوا أحبارهـم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، حيث أحلّ لهم أولئك الأحبار والرهبان الحرام ، وحرموا لهم الحلال ؛ فظلوا على طـاعتهم ، بـل وتقـديسهـم .. هنالـك قسـت قلـوبهم ، فأصبحـت كالحجارة أو أشدَّ قسوة ، فلا يقبلـون موعظة ، ولا يتأثرون بتذكير ، ولا تلين تلك القلـوب بوعـد ولا وعيد ﴿ **ختـم الله على قلوبهم وعلى سمعهـم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ .

والمؤمنون ـ وقد اختارهـم الله للجلّى بحمل رسـالة الإسلام ـ كان من رحمته

سبحانه ، أن ينبههم في وقت مبكر إلى مكامن الخطر كي يجتنبوها ، وبذلك يكونون في منجاة مما انزلق إليه الآخرون ، فكان ما كان من قسوة القلب والضلال والإضلال ، قال الإمام مسلم في كتاب التفسير من صحيحه : حدثني يونس بن عبدالأعلى الصدفي قال : أخبرنا عبدالله بن وهب قال : أخبرني عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال عن عون بن عبدالله عن أبيه ، أن ابن مسعود قال : ما كان بين إسلامنا ، وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ، فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم** وكثير منهم **فاسقون** ﴾ إلا أربع سنين . ورواه ابن أبي حاتم .

ومقالة « ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية، إلا أربع سنين» لم تقتصر على عبدالله ابن مسعود ـ كما هي رواية مسلم وابن أبي حاتم ـ بل يرويها لنا ابن ماجه في سننه على أنها من مسند عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما ؛قال رحمه الله في باب « الحزن والبكاء » من كتاب « الزهد » هناك : حدثنا عبدالرحمن بن إبراهيم قال : حدثنا محمد بن أبي فُديك عن موسى ابن يعقوب الزَّمعي عن أبي حازم ، أن عامر بن عبدالله بن الزبير أخبره أن أباه أخبره « أنه لم يكن بين إسلامهم وبين أن نزلت هذه الآية ، يعاتبهم الله بها ، إلا أربع سنين ، ولا يكونوا كالذين أوتو الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » . قال البوصيري في كتابه «مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه » : هذا إسناد صحيح رجاله ثقات .

والحق أن هذه الكلمة الهادية، التي توجه المؤمنين إلى خشوع القلب ، ليكون يقظاً للتذكر والتدبر ، حيث ينعكس ذلك على الجوارح، فتستقيم على مرضاة الله ، والتي تحذرهم من أن يكونوا كاليهود والنصارى ، في

سلوكهم الذي أدى إلى أن تكون قلوبهم قاسية ، لا تلين لوعد ولا وعيد ، ولا تنتفع بموعظة أو تذكير .. الحق أن هذه الكلمة الهادية ـ كما انتفع بها المسلمون الأولون ـ تضع المسلمين اليوم على الطريق التي هي أقوم ، وتأخذ بأيديهم إلى معرفة الداء ، كيما يعالجوه بالناجع من الدواء ...

فإذا كان الصحابة المثنيُّ عليهم في القرآن والحديث ، عوتبوا بهذه الآية ، فكيف بنا نحن ـ والأمور على ما هي عليه ـ ؟ روى ابن أبي حاتم عن عبدالله ابن المبارك أنه قال : حدثنا صالح المري عن قتادة عن ابن عباس أنه قال : إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن فقال : ﴿ **ألم يأن الذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله** ﴾ .

ألا إن القرآن يعلّمنا ، أن المعالجة الحقيقية للواقع الأليم الذي لا نغبط عليه : تبدأ من هنا ، فماذا نحن فاعلون ؟



طَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُم

ليس من مكرور القول ، التذكير بضرورة التبصر الدائم ، فيما حملت إلينا نصوص الكتاب العزيز والسنة المطهرة ، من بالغ التحذير لأمتنا ، أن تضل سبيلها ، فتقع فيما وقع فيه أهل الكتاب ــ وبخاصة اليهود الذين يقفون لها بالمرصاد ــ سواء كان ذلك على ساحـة العقيدة ، أو الاحتكام إلى شرع الله ، أو السلوك ، ومن ورائه الحركة النفسية وأفعال القلوب .

ومن البـداهة بمكـان ، أن يقود الحديـث عن التبصُّر والتـذكر على هـذه الساحـة ـ إلى مـا جاء في سورة الحديـد ـ كما سبق ــ من عتـاب للمؤمنين ، وتنبيه لهم في شأن خشوع القلوب لذكـر الله ، وما نزل من الحق ، كيما يحصل التدبر الصادق ، والتذكر المفضي إلى العمل المرضيّ لله ولرسوله عليه الصلاة والسلام ، ومن تحذيرهم ، أن يكونوا كاليهود والنصارى الذين أوتوا الكتاب من قبل ، فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون .

وما جاء في سـورة الحديد ـ وهي سورة مـدنية ـ هو قـول الله جل ذكره في الآية السادسة عشرة : ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشـع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكـونوا كالذين أوتـوا الكتاب من قبل فطـال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون** ﴾ . وقد بيّن سبحانه في الآية التي تلي ، أن العودة الصـادقة إلى الله كفيلـة ـ بفضلـه تعالى ــ أن تنتقل بـا لمؤمنين من الواقـع الذي يخشى معه قسـوة القلب ، إلى الخشوع المطلوب ؛ فـالله جلت حكمته قادر أن يرد القلوب إلى الخشوع ، قدرتَه على أن يحيي الأرض بالنبات والعطاء ، بعد أن لا يكـون بها حياة ، ولا عـود ، ولا نبت ولا مطـر . ذلكم

قوله تبارك وتعالى : ﴿ **اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون** ﴾ .

ويبدو ـ والله أعلم ـ أن عناية الكلمة القرآنية بتنبيه المؤمنين على خطر قسوة القلب، التي حلت بأولئك الذين أوتوا الكتاب ، فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، وأن على المسلمين أن يكونوا شديدي الاحتراس من الوقوع في تلك الهاوية .. يبدو أن هذه العناية ترجع إلى أن القلب ، إذا اعترته هذه القسوة ، ورانت عليه ، فلاخير يرتجى منه ما دام على هذه الحال . فلا امتثال لأمر الله يحجز عن المخالفة ، ولا تقوى ترد عن معصية، أو عبث بأحكام الدين ، واتخاذ آيات الله هزواً ، ولا تذكُّر عند التذكير ، ولاسماع لذكر الله ينعكس على السلوك ، وحركة الإنسان في هذه الحياة .

وعلى السنن الذى سلكه القرآن في الهداية ، بأسلوبه المعجز ، نجد في الآية الثانية والعشرين من سورة الزمر ، تقريراً لحقيقةٍ ، مفادُها : أنه لا يستوي من شرح الله صدره للإسلام ، فهو على نور من ربه ، ومن هو قاسي القلب بعيد من الحق لا ينفعل بالكلمة الهادية ، ولا يتأثر با لموعظة التي تنير السبيل ، وقد جاءت هذه الحقيقة على طريقة الاستفهام الإنكاري ، لتثير العقل السليم، وتدعه يحكم ـ بعيداً عن الهوى والعناد ـ ؛ إذ كيف يستوي هذا وذاك ، ذلكم قول الله تبارك وتعالى :

﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين** ﴾ . ثم بيّن ربنا جلّت حكمته ، أن المؤمنين الصادقين ، ليسوا كأولئك الجاحدين المعاندين من اليهود والنصارى، الذين أوتوا الكتاب، فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون ، ولكنهم ـ بصدق إيما نهم وخشيتهم لله ـ تقشعر جلودهم

عند سماع الذكر الحكيم ، كلامِ الجبار المهيمـن العزيز الغفار سبحانه ، ثم تلين جلودهـم وقلوبهم إلى ذكر الله، لما يـرجون ويـؤملون من لطفـه ورحمته ـ وهو الرحيم الـرحمن ، الذي سبقت رحمته غضبه ـ نقـرأ في ذلك قول الله جل ذكره في الآية التي أعقبت سابقتها :**﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعـر منه جلود الذيـن يخشون ربهم، ثم تلين جلودهـم وقلوبهم إلى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد﴾** .

هذا : وفي كتاب الله العـزيز ، ما يبين بوضوح أن قسوة القلـب سمة من سمات اليهود المتأصلة فيهم ، وإليها يعود الكثير من ضلالاتهم التي طبعت تحركهـم في ميادين العقيدة والشريعـة ، ومنهج الأخـلاق والسلوك ؛ ففـي سورة البقـرة : بعد أن كشفت الآيات عما كـان من تعنتهم ، وتشـددِهم على أنفسهم في تعيين البقرة التي أبلغهم موسى عن الله ، أن عليهم أن يذبحوها، مـن أجل معـرفة القـاتـل الذي حـاول ذووه أن يلقوا التبعـة على غيره ، في جريمة وقعت يومذاك ، وما كان مـن سوء أدبهم معه عليه السلام ، مع أنه قال لهم : إن الله يأمركم أن تذبحـوا بقرة ، هكذا على الإطلاق دون تحديد .

في هذه السـورة المبـاركة ... نقـرأ في أعقـاب الكـلام على ذلك التعنـت والتشدد في أمـر البقرة وسـوء الأدب الذي صـدر من أولئـك الأناسي ، مـع نبيهم عليـه السلام ، قول الله تبـارك وتعالى خطابـاً ليهود ، وذلك بـدءاً من الآية الثانية والسبعين . **﴿ وإذ قتلتم نفسـاً فادّارأتم فيها والله مخرج مـا كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ، ثم قسـت قلوبكم من بعـد ذلك فهي كالحجـارة أو أشد قسوة ؛ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون ﴾** .

لقد شاهد بنو إسرائيل الكثير من ايات الله الدالة على قدرته وحكمته سبحانه ؛ ومن هذه الآيات العظام : إحياء الموتى ، فقد أحيا القتيل الذى قتله بعضهم . وادّارؤوا فيه ــ اختلفوا فيه ــ كلٌ يحيل القتل على غيره ، ويدعى البراءة ، فأحياه الله عندما ضُرب ببعض البقرة التي ذبحوها . وبعد أن عيَّن قاتله ، وقبضه الله إليه ، جحدوا وأنكروا ؛ صحيح أن الذين جحدوا وأنكروا هم القتلة ، ولكن الخطاب جاء عاماً ؛ فخصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ عند الأكثرين ؛ إذ أن الآخرين لم ينكروا على الجاحدين ، ورضوا بما حصل منهم . ثم إن آية إحياء الموتى واحدة من آيات كثيرة ، رأوها ، فلم يتَّعظوا ولم تعنُ وجوههم للحق ؛ فقال الله تقريعاً لبني إسرائيل ، وتوبيخاً لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى وإحيائه الموتى : ﴿ **ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة** ﴾..

وهكذا تدل الكلمة القرآنية أوضح دلالة ، على أن أولئك المغضوب عليهم، صارت قلوبهم مع طول الأمد ، قاسية بعيدة عن الخير ، لا تتأثر بموعظة ولا تلين لتذكير بالله واليوم الآخر ــ وكل هذا بعد الذي شاهدوه من الآيات والمعجزات ـ فهي كالحجارة التي تستعصي على اللين ، أو أشد قسوة من الحجارة ، فإن من الحجارة ما يتفجر منه العيون بالأنهار الجارية ، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء ـ وإن لم يكن جارياً ـ ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله .. فأين قلوب بني إسرائيل ، من تلك الحجارة التي لها ما لها من هذه الخصائص؟ ذلكم قوله جل شأنه في تتمة الآية : ﴿**وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ .

أما بعد : فإن على المسلمين أن يدركوا تمام الإدراك ، أن طريقهم ينبغي أن

تكون مختلفة كل الاختلاف ، عن طريق أولئك الـذين يذكِّرنا هذا الذي نقرأ في سورة البقرة ، من قسوة قلوبهم ، وبما رأينـا من قبل في سورة الحديد ، من قوله تعالى : ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر اللهوما نزل من الحق، ولا يكونوا كالـذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهـم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون** ﴾ .

ولئن كان الواجـب ،عدمَ سلوك الطريق التي تؤدي ـ بسـوئها ـ إلى قسوة القلب ، إن رسول الله ﷺ علّمنا ـ بجانب ذلك ـ أن نلجأ إلى الله سبحانه في أن يجنبنا ـ بمنّه وكرمه ـ كلَّ ما هو من قسوة القلب ، وعدم خشوعه، بسبيل . أخرج الترمذي بسنـده عن عبد الله بن عمرو بن العـاص رضي الله عنه قال : «كان رسول الله ﷺ يقول : اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ودعاء لا يسمع ، ومن نفس لا تشبع، ومن علم لا ينفع. أعوذ بك من هؤلاء الأربع».

ثم أين نحن مما صح عنه ﷺ ، مـن جعله القلب موئل التقوى ومكانها ، وذلك قوله : « التقـوى ههنا » وأشار إلى صدره ثلاث مرات ؛ فـإذا قسا هذا القلب من طول الأمد ، فأين تكون التقوى ؟؟ أين تكون وقد استُبدل الذي هو أدنى ـ وهو القسوة ـ بالذي هو خير ـ وهو تلك المنقبة العظيمة ـ ؟.

وذلك هو الخسران المبين ؛ لأن القلب إذا أصيب بذلك : فسـد ، وأصبح عـاطلاً عـن التـوجُّه إلى الخير ، وانعكـس ذلـك على فعل الجوارح ، ففسـد عملهـا بفساده ، كما بيّن ذلـك إمام المعصـومين عليه أفضـل الصلاة وأتـم التسليم .

قلوب كالحجارة أو أشد قسوة.. فاعتبروا

كانت لنا من قريب ، رحلة قصيرة مع الكلمة القرآنية الهادية في سورة الحديد ، تعاتب المؤمنين ، وتدعوهم إلى أن تخشع قلوبهم لذكر الله ، وما نزل من الحق ، وتحذرهم بالغ التحذير ، أن يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ــ وهم اليهود والنصارى ــ فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون . واقتضانا الأمر ـ والمقولة مقولة التحذير من التشبه بأولئك الكافرين الذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم ـ اقتضانا الأمر ، أن نحط الرحال عند آيات كريمات من سورة البقرة ، كشفت بجلاء عن أن القسوة التي أشير إليها في سورة الحديد ، هي سمة من سمات اليهود المتأصلة فيهم ، فهم لشدة تلك القسوة التي ترين على قلوبهم ، لا يخشعون لتذكير ، ولا يتأثرون بموعظة ، ولا ينتفعون بما يرون من الآيات والمعجزات الدالة على قدرة الله وحكمته ، ومظاهرِ علمه المحيط سبحانه وتعالى .

لقد قست منهم القلوب ، وغلظت وجفت ، حتى باتت كالحجارة أو أشدَّ قسوة ، فإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله ، وكان لتلك السمة المهلكة انعكاساتها الصارخة على سلوك اليهود ، ونظرتهم إلى أمور الدنيا والدين ، فهم لا يرجون لله وقاراً ، ولا يفتؤون يرتكبون كل موبقة ، بغية الوصول إلى ما يريد لهم الهوى والشيطان .

والآيات التي حملت إلينا هذه الحقيقة ، جاءت بعد الكلام على تعنت

بني إسرائيل ، وتشددهم البارد في أمر البقرة التي أمروا بذبحها ، وأن يضربوا القتيل ببعضها لمعرفة القاتل ، في جريمة قتل جرى النزاع والاختلاف بشأن المقتول فيها ، حيث حاول البعض دفع تهمة القتل عن صاحبهم ، وإلقاء التبعة على آخرين غيرهم .

تلكم الآيات : هي قول الله تبارك وتعالى ، خطاباً لليهود في عصر النبي ﷺ ، لأنهم على سنن أجدادهم الذين فعلوا ذلك : **﴿وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون . ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لمايشقّق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون﴾** .

النفس التي قتلوها : تنازعوا فيها ، فصار كل فريق يلقي التبعة على الآخرين ، فهؤلاء يقولون : أنتم قتلتموه ، وأولئك يقولون : بل أنتم الذين قتلتموه ، ولكن الله الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء مُظهِّر ما كانوا يكتمونه ويخفونه ذلكم قوله تعالى : **﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾** . أي والله معلن ومظهر ما كنتم تسرونه ، من قتل القتيل الذي قتلتم، ثم ادّارأتم : أي تنازعتم واختلفتم فيه .

وأَمَرَ الله بأن يضرب القتيل ببعض البقرة التي أمروا بذبحها، فذبحوها ، وكان ذلك ، فأحيا سبحانه بقدرته القتيل ، فنطق باسم القاتل ، وبالسبب الذي من أجله قتله ، ثم قبضه الله إليه **﴿ فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ﴾** .

ولكن ماذا كان بعد هذه الخارقة، وهـي إحياء الميت ، وجعله ينطق باسم قاتلـه ، وبالسبب الـذي من أجله قتله ؟ لقـد كان اللَّجاج والعنـاد ، وكان الكذب وقسوة القلب ، والعياذ بالله تعالى . أخرج الطبري في تفسيره (جامع البيان) بـالسند عـن ابن عبـاس رضيالله عنهما أنه قـال : لما ضرب المقتول ببعضها ، يعني بعـض البقرة ، جلس حياً ، فقيل له : مـن قتلك ؟ فقال : بنو أخـي قتلوني ، ثم قُبـض . فقال بنـو أخيه حين قُبض : والله مـا قتلناه ، فكذبوا بالحق إذ رأوه فقـال الله : ثم قست قلوبكم ـ يعنـي بني أخي الشيخ المقتول ـ فهي كالحجارة أو أشد قسوة .

وفي « تفسير القرآن العظيـم » للحافظ ابن كثير : قـال العوفي في تفسيره عن ابن عبـاس ، لما ضر ب المقتول ببعض البقرة جلس أحْيا مـا كان قط ، فقيل له : من قتلـك ؟ قال : بنو أخي قتلوني ، ثم قبـض ، فقال بنو أخيه حين قبضه الله : والله ما قتلنـاه ، فكذبوا بالحق بعـد أن رأوه ، فقال الله : ثم قست قلوبكم مـن بعد ذلك ـ يعني بني أخي الشيخ ـ فهي كالحجارة أو أشد قسوة .

وواضح أن المراد بقولـه تعالى : « من بعد ذلك »: مـن الأمر الخارق الذى حصل ، وهو إحياء الموتى، وقد روى الطبري عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ **ثم قست قلوبكم من بعد ذلك** ﴾ يقول: من بعد ما أراهم الله من إحياء الموتى ، وبعد ما أراهم من أمر القتيل ما أراهم ، فهي كالحجارة أو أشد قسوة .

هكذا يجيء التعبير عن تلك القلوب بغاية الوضوح .. فكأنه جل شأنه يقول : ثم جفَّت قلوبكم وصلُبت ـ بعد إذ رأيتم الحق فتبينتموه وعرفتموه ـ عن الخضوع له ، والعمـل بما يوجبه حقُّ الله عليكم ، فقلوبكـم كالحجارة صلابة وغلظـة ويُبساً وشدة ، أو أشد قسوة ، قال شيـخ المفسرين : يعني :

قلوبهم عن الإذعان لواجب حق الله عليهم ، والإقرارِ له باللازم من حقوقه لهم ، أشد صلابة من الحجارة .

ولعل هذه الصـورة ، تتضح أكثر وأكثر : إذا أتينا على ما قـاله العلماء عن معنى (أوْ) في قول الله جل شأنه ﴿ **فهي كالحجارة أو أشد قسوة** ﴾ فالإجماع منعقد على أن (أو) هنـا ليست للشـك ؛ لأن الله جل شـأنه ــ وهو العليـم الخبير ـ غير جائز في خبره الشك ، فذلك مـن المحال ، تعالى سبحانه عن ذلك علواً كبيراً . ولذلك وردت عن علماء العربية والتفسير عدة أقوال في ذلك ؛ من هـذه الأقوال : أن (أو) في قوله « أو أشد قسـوة» بمعنى الواو ، والتقدير كالحجارة وأشد قسوة ، كما قال تعالى في سورة الإنسان ﴿ **ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً** ﴾ بمعنى: وكفوراً ، وكما قال جرير بن عطية :

نال الخلافَةَ أو كانت له قدراً كما أتى ربَّه موسى على قدر

يعني : نال الخلافة وكانت له قدراً .

وقال بعضهم : (أو) في هذا الموضع بمعنى (بل) ويكون التقدير : فهي كـالحجارة ، بـل أشـد قسـوة ، كما قال جـل ذكـره في سـورة الصافـات : ﴿**وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون** ﴾ بمعنى بل يزيـدون . وقال آخرون : المعنى : فقلوبهم لا تخرج من أحد هذين المثَلين : إما أن تكون مثْل للحجارة في القسوة ، وإما أن تكون أشد منها قسوة .

ومن هنـا يكون التأويـل على هذا المعنى : ثـم قست قلوبكـم ؛ فبعضها كالحجارة قسوة ، وبعضها أشد قسوة من الحجارة . وهكذا ترى أنها أوجهٌ من القسوة اتسمت بها قلوب أولئك المغضوب عليهم . والمؤمنون منهيُّون أشد النهي ، محذَّرون أبلغ التحذير ؛ عـن سلوك أي سبيل قد تصل بهم من

قريـب أو من بعيد ، إلى مـا وصل إليه اليهود مـن تلك القسوة ، بعـد ظهور الآيات والمعجزات ، ومنها إحياء الموتى ، لأن قسوة القلب ـ كما أسلفنا من قبل ـ تنعكس آثـارها على تصرفات الجوارح ، حتى تصبح العلاقـة بالدين، كأنها دعوى بلا دليل . ومسلـكُ اليهود في الماضي والحاضر : صورة واضحة لذلك .

من هنا نرى النبي ﷺ ، قد ربى أمته على الابتعاد عن كل ما يوقع في قسوة القلب ، فكان من هـديه عليه الصلاة والسلام قوله فيما أخـرج ابن مردويه من رواية ابن عمر رضي الله عنهما : « لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة في القلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي » وأخرجه الترمذي . وروى البزار عن أنس مرفوعاً : « أربع من الشقاء : جمود العين ، وقساوة القلب ،وطول الأمل ، والحرص على الدنيا » .

وصلى الله وسلم وبارك على معلم الناس الخير ، الذي أدى الأمانة ، وبلّغ الرسالة ونصح الأمة ، وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين .

﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ؟! ﴾

وقفتنا نصوص الكتاب العزيز والسنة النبوية المطهرة في صفحات قريبات ، على عدد من النماذج التي حملت تحذير المسلمين ، من التردي فيما تردى فيه أهل الكتاب اليهود والنصارى ، وبعضهُم أولياء بعض ـــ ، من انحراف عن دين الله وطاعة للهوى والشيطان ، حيث أورث ذلك ما أورث من قسوة في القلب، وجفوة عن الحق، وما يُنتظر من سوء العاقبة في الآخرة : أشدُّ وأنكى .

وقد رأينا في ذلك ، ما جاء في سورة الحديد ، من قول الله تبارك وتعالى عتاباً للمؤمنين ، ونهياً لهم عن تقليد اليهود والنصارى : **﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتو ا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴾** .

وقد وقفتنا آيات كريمات ، من سورة البقرة ، على أن قسوة القلب ـ ذلك الداء العضال الذي يودي بصاحبه إلى المهالك في الدنيا والآخرة ؛ اعتقاداً وسلوكاً ـــ سمة من سمات اليهود والنصارى المتأصلة فيهم ، ولا يعجز الناظر في تصرفهم قديماً وحديثاً ، أن يقع على الكثير الكثير من الصور التي تثبت ذلك وتؤكده . والآيات التي نعنيها من هذه السورة المباركة : ما جاء بعد الكلام عن تعنت يهود في إنفاذ أمر الله لهم ، من طريق موسى عليه السلام بذبح بقرة !!

وأود أن أشير هنا ، إلى أنه مما يستوقف الناظر المتأمل ، أن آيات الكتاب الكريم قد وجهت المسلمين ـ وهم يحملون رسالة الحق والخير ـ إلى أن

عليهم أن يكونوا على يقظة تامة ، بشأن هؤلاء اليهود ، فيفيدوا من ا لحقائق التي يكشف عنها القرآن في شأنهم ، وما يبينه من الخصال المتأصلة فيهم.. وأنهمَ إن فعلوا ذلك ــ وفروا على أنفسهم كثيراً من العنت في العلاقة بقُساة القلوب ، ولم يقعوا في شرك الاغترار بهم ، أو التشبه بشيء من فعالهم وسلوكهم .

والآيات التي رأينا ، والتي وصفت من قسوة القلوب عند اليهود ، بعد الذي رأوا من الآيات والمعجزات ما وصفت ؛ فهي كالحجارة أو أشد قسوة.. أجل أشد قسوة ؛ فإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله ... هذه الآيات المباركات ، أعقبها قول الله تعالى خطاباً للمؤمنين ، وتنبيهاً لهم أن يكونوا شديدي الحذر : ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون ؟. أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون**﴾.

يعني ربنا تبارك وتعالى : أفتطمعون ياأصحاب محمد ، أي أفترجون يامعشر المؤمنين بمحمد ﷺ والمصدقين بما جاءكم به من عند الله ، أن يصدقكم اليهود بما جاء به نبيكم ﷺ وأن ينقادوا لكم بالطاعة ، وهم يسيرون على نسق آبائهم الذين شاهدوا من الآيات البينات ما شاهدوه ، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك ؟. وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه ، يتأولونه على غير تأويله ، ويكذبون على الله فيه ، من بعد ما عقلوه، أي فهموه على الجلية ، ومع هذا يتعمدون مخالفته على بصيرة ، وهم يعلمون

أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله ، ولكنه العناد وقسوة القلب، وحدِّث عن عقابيل ذلك ولا حرج .

أخرج الطبري بسنده عن ابن زيد في قوله تعالى : ﴿ **يسمعون كلام الله ثم يحرفونه** ﴾ قال : هي التوراة التي أنزلها عليهم يحرفونها ، يجعلون الحلال فيها حراماً ، والحرام فيها حلالاً والحق فيها باطلاً ، والباطل فيها حقاً . إذا جاءهم المُحِقُّ برشوة أخرجوا له كتاب الله ، وإذا جاءهم المُبْطِلُ برِشوة ، أخرجوا له ذلك الكتاب ـ الكتاب المحرف ـ فهو فيه محق . وإن جاء أحد يسألهم شيئاً ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء ، أمروه بالحق ، فقال لهم : ﴿**أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون**﴾ .
وقال أبو العالية : عمدوا إلى ما أنزل الله في كتابهم ، من نعت محمد ﷺ فحرفوه عن مواضعه .

وهكذا يكشف القرآن للمسلمين ـ بطريقة غاية في الوضوح والجزم ـ عن أن هؤلاء اليهود الذي كانوا في عصر النبي ﷺ ، قد سبقت لآبائهم أفاعيل سوء وعناد ، وانحراف عمدي عن جادة الحق ، وهم ـ أي الأبناء ـ على ذلك السنن ـ حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّة ـ فكيف تطمعون في إيمانهم . أولئك عرفوا الحق وحاولوا تأويله على غيرِ وجهه ، وتحريفَ الكلم عن مواضعه ، وهؤلاء أيضاً عرفوا الحق وحاولوا طمس معالمه ، وكذبوا بمحمد عليه الصلاة والسلام ، مع علمهم بتبشير التوراة به ، وأن عليهم أن يؤمنوا بما جاء به من عند الله عز وجل .

وجميل ما وجه إليه الإمام القرطبي ، من أن الآية الكريمة ، تدل أيضاً على أن العالم بالحق ، المعاندَ فيه ، بعيد من الرشد ، لأنه علم الوعد والوعيد ، ولم ينهه ذلك عن عناده .

هذا: ولعلنا لا نبعد النجعة ، إذا رأينا أنـه ربما كان من آثار قسوة القلب والبعد عن الله عند اليهود ، ما كان منهم من النفاق ؛ حيث كان فريق منهم يتظاهرون بالإيمان ، تحقيقاً لمصالح يتوهمونها ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض، كان الأمر غير ذلك . فبعد قوله تعالى : ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونـه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون** ﴾. نقرأ قـوله جل ذكره وتبـاركت أسماؤه : ﴿ **وإذا لقوا الـذين آمنوا قالـوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعـض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحـاجُّوكم به عنـد ربكـم أفـلا تعقلـون ؟. أولا يعلمـون أن الله يعلـم مـا يسرُّون ومـا يُعلنون**﴾.

إن قدراً مشتركاً من الخبث والضـلال ، قائم بين النفاق ، وبين ما يسلكه أهل العلم والمعرفـة فيهم ؛ من التحريف المتعّمد لما يسمعـون من كلام الله ، مع علمهم أنهم على الباطل ، في تحريفهم ما حرَّفوا ، وهم مقرون ظالمون .

فـالنفـاق ـ بـإرادة مُـريبـةٍ ، وإصرار على تحقيـق مـا يمكرون مـن أجلـه بالمسلمين ـ سلاح يستخدمونه في معركة ، يخوضونها مع الحق وأهله.

وقل مثل ذلـك ـ مع اختلاف الصورة لا غير ـ في تلـك العملية الظالمة التي تتمثل في كونهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه ـ من بعد ما عقلوا تأويله وأدركوا مراميه ـ وهم يعلمون أنهم في تحريفهم ما حرفوا من ذلك ، مبطلون كاذبون ؛ فالنسب واضح كل الوضوح بين الأمرين .

ونعـود مـرة أخرى ، إلى التـذكير بـأهميـة مـا نبـه عليه القـرآن ، مـن أن الاطمئنان إلى هؤلاء المتَّسمين بتلـك السمات في التعامل مع كـلام الله وعباد الله ، ضربٌ من العبث العابث ، بعد أن تبيّن ما فعله الآباء منهم والأجداد؛

فكلهم يسير على سنن الضلال نفسـه ، بل قد يتوافر للأحفـاد ، ما لم يتوافر للأجداد مـن وسـائل الأذى وتعميـق الانحراف ، كـالـذي نـراه في العصر الحاضرعلى صعيـد المواجهـة معهـم ، ومـع مــن يمالئهـم ، وهـم الظـالمون المغتصبون المفترون .

وإني إذ أتمنـى أن يـزداد تبصرنا بهذه الحقيقـة ، كيما يقـف المسلمـون على اليابسـة في تعاملهم مع يهود في حـالات الحرب والسلم ـ أن لـو أُعيدوا إلى السِّلـم ـ أود التـذكير بكلام شيـخ المفسريـن الطبري حول قـوله تعـالى : ﴿**أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ...**﴾ الآية . قال رحمه الله : (وذلـك إخبار من الله جل ثناؤه عـن إقدامهم على البهت ، ومنـاصبتهم العداوة له ، ولـرسوله ﷺ وأن بقاياهم ــ في مناصبة العداوة لله ولرسولـه ﷺ بغيًا وحسداً ـ على مثل الذي كان عليه أوائلهم في عصر موسى عليه الصلاة والسلام).

اللهم أرنا الحق حقاً وازرقنـا اتباعه ، وأرنا الباطل باطـلاً وارزقنا اجتنابه ، **وأنر بصائرنـا كي لا نقعَ في شرك المخادعة ، والتزويـر ، ولا تنطليَ علينا حيل المخادعين والمزورين ؛ فـإنه دائماً : وراء الأكمة ما وراءهـا ، ورحم الله شيخ المفسرين أبا جعفر ، فقد قـال ما قال استنباطاً من الآية الكريمـة ـ وقد توفي سنة عشر وثـلاثمائة للهجرة ـ فما بـالك لو شهـد ما نحن فيـه اليوم !! إن في ذلك لعبرة لمن يخشى !! والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه .**



أيُّ نفاق وأيّ مكر !!

أسعدتنا من قريب ، صحبة آيات كريمات من سورة البقرة ، أيأسَ الله فيها المؤمنين ، من أن يقف اليهود موقف التصديق والإيمان برسالة النبي محمد عليه الصلاة والسلام . كيف وهم أحفاد أولئك الذين قست قلوبهم، من بعد ما رأوا الآيات البينات ، فهي كالحجارة أو أشد قسوة ، وتراهم يترسَّمون خطاهم ، ويسلكون نهجهم ، في ارتياد مسالك الضلال والانحراف ، وفي الوقت نفسه: يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ، وهم يعلمون ... ولا تسل عن نفاقهم؛ والنفاق شرٌّ كله ، في كل زمان ومكان .

والآيات التي نعنيها ، هي قول الله تبارك وتعالى ، بدءاً من الآية الخامسة والسبعين في السورة المشار إليها: ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون . أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون ما يعلنون** ﴾ .

ونحن الآن ، على موعد لاصطحاب الآيتين الآخيرتين ، بدءاً من قوله تعالى: ﴿ **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ..** ﴾ الآيتين ؛ ذلك أن نفراً من اليهود لجؤوا في عدائهم لرسول الله وأصحابه ، إلى هذا النوع من السلاح ، وهو النفاق ؛ فإذا لقوا محمداً عليه الصلاة والسلام ، قالوا : آمنا بالذي جئت به ، وإذا لقوا أصحابه ، قالوا : آمنا بما آمنتم به ، وإن صاحبكم

لصادق؛ روى الطبري بسنده عـن ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكـم به عند ربكم** ﴾ وذلك أن نفـراً من اليهود كانـوا إذا لقوا محمداً ﷺ قالوا : آمنا ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم . وفي رواية أخرى عـن ابن عباس أيضاً ﴿ **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا** ﴾ يعني المنافقين مـن اليهود ، كانوا إذا لقـوا أصحاب محمد ﷺ قالوا : آمنا .

على أن رواية ثالثة ، تكشف عن تعدد الوقائع في هذا الذي يفعلون ، كما تكشف عن شيء من دخيلة أنفسهم فيما يقولـون ؛ إذ كان نفر منهم يقولون للصحابـة ـ من يلقـون منهم ـ : آمنـا بصاحبكـم ، ولكنه إليكم خـاصة ؛ ذلكم ماجـاء في رواية أخرى عن عكـرمة أو عن سعيد بـن جبير ـ كما يقول الطبري ـ عـن ابن عبـاس رضي الله عنهما ﴿ **وإذا لقوا الذين آمنـوا قالوا آمنا** .. ﴾ أي بصاحبكم رسول الله ﷺ ولكنه إليكم خاصة .

وهكذا تدل الروايات في تفسير الآية الكريمة . أن ذلك خبر من الله جل شأنه عن الذين أيأس أصحابَ محمد ﷺ من إيمانهم من يهود بني إسرائيل، الذيـن هم أحفاد أولئـك الذيـن قست قلوبهم ، وران عليهـا الضلال ، ولا يحيدون عن طريقهم قيد أنملة ، والذيـن كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهـم يعلمون .... وليس ذلك فحسب ، بل هم الذين ـ إذا لقـوا الذين صدَّقوا بالله ، وبمحمـد عليه الصلاة والسلام ، وبما جاء به من عنـد الله ديناً قيّماً للناس كافة ـ قالوا : آمنـا ، أي صدَّقنا بمحمد وبما صدَّقتم به وأقررنا بذلك . أخبر الله عز وجل عنهم أنهم تخلقوا بأخلاق المنافقين ، لأن المدّ الإسلامـي المبارك ، حوّل ميزان القوى ، فلـم يعد الأمر

لصالحهم وفق مقاييسهم الآثمة ، فلجأ فريق منهم إلى النفاق ، وإن كانت بعض الروايات قد صرحت بأنهم كانوا يقولون للصحابة: آمنّا بصاحبكم ولكنَّه إليكم خاصَّة .

غير أن هذا الذي كان يفعله المنافقون من اليهود ، من التظاهر بالإيمان ، لم يَرُقْ لرؤسائهم وأصحاب الكلمة فيهم ، لما أن النطق بكلمة الإيمان : اعتراف بما جاء في التوراة من نعت محمد ﷺ ، وأمرِهم بالإيمان به حين يبعث ؛ فإذا عرف المسلمون ذلك ، احتجوا به عليهم ، ولذلك كانوا يقولون لهم: أفلا تعقلون؟ فقد ورد عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ **وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجُّوكم به عند ربكم أفلا تعقلون** ﴾ أي تقرُّون بأنه النبي الذي كنا ننتظر ونجده في كتابنا، اجحدوه ولا تقرّوا لهم به ، يقول الله تعالى ﴿ **أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون** ﴾ ؟ وقال الحسن البصري : (هؤلاء اليهود كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قال بعضهم : لا تحدثوا أصحاب محمد ﷺ بما فتح عليكم في كتابكم ليحاجُّوكم عند ربكم فيخصموكم) . وروي التصريح بنعت محمد ﷺ عن أبي العالية وقتادة في معنى ﴿ **أتحدثونهم بما فتح الله عليكم** ﴾ أي بما أنزل الله عليكم في كتابكم من نعت محمد ﷺ ، فإنكم إذا فعلتم ، ذلك احتجُّوا عليكم ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ .

وهكذا لم ينكروا عليهم النفاق لذاته ، ولكنهم أنكروا أن يكون ذلك سبباً في إعطاء المسلمين ذريعة الاحتجاج عليهم ، لأنه كشفٌ عما في كتابهم من نعت محمد ﷺ وأمْرٌ لهم بالإيمان به حين يبعث . يؤكد ذلك ما ورد من أن النبي ﷺ قال لبني قريظة الذين نقضوا العهد وخانوا الأمانة : قال لهم ـ

وقد قام تحت حصونهم ــ: « ياإخوان القردة والخنازير ويـاعبدة الطاغوت» فقالوا : من أخبر بهذا الأمر محمداً ؟ ما خرج هذا القول إلا منكم . القائلون هم سدنة الضلال فيهم ، والمخاطبون أولئك الذين كانوا ينافقون .

ولكن يبدو أن مكر يهود ، هداهم إلى أن يظـل أمر النفاق سارياً لتحقيق أغراض ؛ منهـا معرفة أخبار المسلمين ومـا يدور في المدينة ، على أن تـؤخذ الحيطة ، ويعودَ هؤلاء المنافقون ، فيصرحوا بالكفر لدى رؤسائهم وقومهم ، وذلك عندما حدّد النبي عليه الصلاة والسـلام صفة من يسمح له بدخول المدينة ، وأنـه لا يجوز أن يدخلها إلا مؤمـن . يوجهنا إلى ذلك ، مـا ورد عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم ، فيما رواه ابـن وهب عنه في دلالة الآية الكريمة حيث قـال : كانوا إذا سئلـوا عن الشيء قالـوا : أما تعلمون في التـوراة كذا وكذا ؟ قالوا : بلى ! قال : وهم يهود ، فيقول لهم رؤساؤهم الذين يرجعون إليهم: ما لكم تخبرونهم بالذى أنزل عليكم فيحاجوكم به عند ربكم ؟ أفلا تعقلون ؟ قـال : قال رسول الله ﷺ : « لا يـدخلنّ علينا قصبـة المدينة إلا مؤمـن » . فقال رؤساؤهـم من أهل الكفر والنفـاق : اذهبوا فقولـوا : آمنا واكفروا إذا رجعتم . قال : فكانوا يأتون المدينـة بالبُكَرِ ويرجعون إليهم بعد العصر ، وقرأ قول الله : ﴿ **وقالت طائفة من أهـل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون** ﴾ .

وكانوا يقولون إذا دخلوا المدينة : نحن مسلمون ، ليعلموا خبر رسول الله ﷺ فإذا رجعوا ، رجعـوا إلى الكفر فلما أخبر الله نبيه ﷺ ، قطع ذلـك عنهم فلم يكونـوا يدخلون . وكان المؤمنـون الذين مع رسـول الله ﷺ يظنون أنهم مؤمنون . فيقولون لهم: أليس قد قال الله لكم كذا وكذا ؟ فيقولون : بلى . فإذا رجعـوا إلى قـومهـم ــ يعنـي الرؤسـاء ــ قـالـوا : ﴿ أتحدثـونهم بما فتـح الله

عليكم..﴾ الآية .

البُكَرَ : جمع بُكْرَة . جاء في « المصباح المنير » : البُكـرَةُ من الغداة : جمعها بُكَرٌ مثل غُرفَةٍ وغُرَفٍ .

أرأيت إلى هذه السمة من سمات اليهود ؟ إذا قـويت شوكتهم ، لأسباب من هنا وهناك ، كـا ن منهم ما نرى وما نسمع في واقعنـا اليوم . وإذا شعروا بالضعـف ، لجؤوا إلى أسلحة أخرى ؛ من أبـرزها النفاق ، كما ظهـر ذلك في عهد النبي ﷺ ، وإن كانت يقظة المسلمين يومذاك ، قد حالت دون تحقيق ما يريدون ... ثم كـانت الحرب العلنية ، ونصر الله عباده المؤمنين عليهم إلى أن حُكم بجلائهم عن جزيرة العرب .

ألا إن آيات الكتـاب الكريـم ، ونصوصَ السنـة المطهرة والسيرة النبـوية الكريمـة ، حافلة بـأخبار هؤلاء المنافقين قسـاةِ القلوب ، على الوجـه الذي ينبغي أن يكون نبراساً في ترشيد العلاقة بهم، إيماناً صادقاً ويقظة لكل شاردة وواردة،وجهاداً في سبيل الله تتمثَّل فيه اللغة المنـاسبة التي لالغة سواها لنصرة الحق وأهله ، على الباطـل وسدنته ومظاهريه . وذلـك ما تؤكده الوقـائع يوماً بعد يوم.

والله المسؤول أن يزيل الغشاوة عـن الأعين ، ويردّ الأمة ردّاً جميلاً واعياً إلى ماجـاء في كتابـه الكريـم ، وسنة نبيـه المصطفى ﷺ ، ومـانطقت بـه وقائع التاريخ ـ بدءاً من السيرة العطرة ـ حتـى يوم الناس هذا .. وصدق ربنا جل شـأنـه إذ يقـول : ﴿ **والـذيـن جـاهدوا فينـا لنهـدينَّهـم سبلنـا وإن الله لمع المحسنين**﴾ .



﴿ وجعلنا قلوبهم قاسية ﴾

من خلال الكلمات القرآنيــة الهادية في شأن اليهود، ومـا ران على قلوبهم من القسوة ، التي كان لها انعكاساتها على تصرفاتهم ، حيث بات الانحراف الضالُّ في السلوك ، وتحريفِ الكلم عن مواضعه، سمةً مميزة لهم ـ كل أولئك بعد الذي عاينوا من الآيات والمعجزات التي منها إحياء الموتى بإذن الله .. مـن خلال الكلمات الهاديـات المباركـات ، يتبـدى للناظـر الفهِم : تحذيـر المؤمنين أن يكونـوا كالـذين أوتوا الكتـاب من قبـل، فطال عليهـم الأمد ، فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون كما جاء في سورة الحديد. كما يتبدى له ، تيئيس الله المؤمنين من أن يطمعـوا في إيمان اليهود ، بعد الذي بـدا من قسوة قلوبهم ، فهي كـالحجارة أو أشد قسوة ؛ وكـان هذا الداء المردي من بعـد ما ظهـر لهم مـن الآيـات التـي لاتدع ريبـة لمستريـب ، في أن الله الـذي بيـده ملكوت السماوات والأرض، هو القاهر فوق عباده ، وهو المحيي المميت ، وأنه لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون .

وانضم إلى هذا ، أنه كـان فريق منهم يسمعون كلام الله ، ثـم يحرفونه من بعد ما عقلـوه وهم يعلمون . وإذا لقوا الـذين آمنوا قالـوا : آمنا ، وإذا خلا بعضهم إلى بعـض قالوا : أتحدثـونهم بما فتح الله عليكم ليحـاجوكم بـه عند ربكم أفلا تعقلون . قال الله تعالى:﴿ **أولا يعلمون أن الله يعلم ما يُسرون وما يُعلنون..** ﴾ وذلك ما رأيناه في سورة البقرة .

وليس بدعاً ـ والحديث عن القلـوب القاسية عند يهود بني إسرائيل ، وما كشف الكتـاب العزيـز عن آثار ذلـك في حياتهم وسلوكهـم ، وما كـان من

توجيه المسلمين إلى المنهج السليم الذي يضمن الذاتية وعدم تقليد أولئك المغضوب عليهم ... ليس بدعاً أن يقودنا هذا الحديث إلى حقيقة أعلنها القرآن الكريم ، وهي أن قسوة القلب : كانت مما عاقب الله به يهود بني إسرائيل ، على نقضهم الميثاق الذي واثقوا الله عليه ، وخيانتِهم أمانة الدين التي اؤتمنوا عليها ؛ ذلكم ما نجده في سورة المائدة من قول الله تبارك وتعالى في الآية الثانية عشرة منها : ﴿ **ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم ، لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة ، وآمنتم برسلي ، وعزَّرتموهم و أقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرنّ عنكم سيئاتكم ولأدخلنَّكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضلَّ سواء السبيل** ﴾. ثم قال الله جل شأنه : ﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ، ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم ، فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين** ﴾ .

هكذا أخبر الله عز شأنه عن بعض غدرات اليهود وخياناتهم ، وجراءتهم على ربهم ، ونقضهم ميثاقهم الذي واثقهم عليه بارئهُم ، مع نِعَمِهِ التي أفاضها عليهم وخصهم بها ، ومكارمه التي لم ينهدوا إلى شكرها .

لقد أخذ ميثاقهم ، أن يكونوا على الصراط السوي ؛ اتباعاً للدين ، وعملاً بما جاءهم به رسلهم من عند الله ، وبعث منهم اثني عشر نقيباً - عرفاء على قبائلهم - بالمبايعة بالسمع والطاعة للهّ ولكتابه ولرسوله . ووعدهم بأن يكون معهم بالنصر والمعونة ، إن هم استقاموا على الطريقة ؛ إقامةً للصلاة و إيتاءً للزكاة ، وتصديقاً للرسل فيما يجيئونهم به من الوحي ، ونصرتَهم ومؤازرتَهم على الحق ، و إنفاقاً في سبيل الله ابتغاء مرضاته ، وأنهم

إن فعلوا ذلك ، كان لهم حسن العاقبة من تكفير السيئات ودخول جنات تجري من تحتها الأنهار . ومن خالف هذا الميثاق بعد عقده وتوكيده ، فسلك السبيل المعوجة ، حتى كأنه ليس هنالك من ميثاق ، فقد أخطأ الطريق الواضح وعدل عن الهدى إلى الضلال ورضي لنفسه العماية ،بديلاً عن القلب المبصر، والنور المبين .

ولأمر ما ، جاء ذلك كله مفصلاً في الآية التي أوردناها آنفاً مبدوءاً بالقسم فقال جل شأنه : ﴿ **ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل ، وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً ..** ﴾ وليس ذلك فحسب . بل جاء الترغيب العظيم بالعمل والاستقامة بهذا الوعد من الله ، ولا يخلف الله وعده فقال سبحانه : ﴿ **إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي ، وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأ كفرنَّ عنكم سيّئاتكم ولأدخلنَّكم جنّات تجري من تحتها الأنهار** ﴾ .

سبحان الله أيُّ ترغيب هذا الذي نرى ؟وأيٌ وعد كريم من رب كريم ، ما نقرأ ؟ولكن اليهود هم اليهود . ثم جاء الوعيد لمن كفر بعد ذلك ، الأمر الذي يعطي صورة التكامل في منهج الهداية ، فالبشارة لمن آمن واستقام ، والنذارة لمن جحد ، و تنكب طريق الاستقامة والهدى ، ذلكم قوله تعالى : ﴿**فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل** ﴾ . قال الإمام الطبري في تفسير ذلك: (يقول عز ذكره : فمن جحد منكم يا معشر بني إسرائيل، شيئاً مما أمر به ، فتركه ، أو ركب ما نهيته عنه ، فعمله بعد أخْذي الميثاق عليه بالوفاء لي بطاعتي ، واجتناب معصيتي : فقد ضل سواء السبيل . يقول : فقد أخطأ الطريق الواضح وزلَّ عن منهج السبيل القاصد) .

ولكن بني إسرائيل لم يحل دونهم ، ودون أن يركبوا متن الضلال .

ويتخذوا سبيل الغـيَّ سبيلاً ، وعدٌ ولا وعيدٌ ؛ فلا وعدُهـم بكل ذلك الخير والمثوبة ، بعد أخذ الميثاق ، وبعثِ اثني عشر نقيباً ، ولا وعيدُهم بأن نقضَ الميثاق والجنـوح عن الهدى ، ضـلالٌ عن سـواء السبيل : غيَّر مـن واقعهم النفسي أو السلوكي ؛ فكان أن نقضوا الميثاق الذي أعطوا الله عهدهم عليه ، وتعدَّوا حدود الديـن ، وجاهروا الله سبحانه بالعداوة ، والمخـالفةِ عن أمره. وبدل أن يطيعوا ، ويفعلـوا ما يقربهم إلى خالقهم ، كانـوا على النقيض من ذلك بإصرار مهين. من أجل ذلك ، حـق عليهم العقاب ، فكان اللَّعن ، وكانت قسوة القلب ، وترتب على ذلك ما ترتب من أمور عظام ؛ جاء ذلك صريحاً في الآية التـي تلت ؛ فبعـد قولـه سبحانـه في ختام الآيـة السابعـة : ﴿فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ نقرأ قوله جل وعلا : **﴿ فبما نقضهم ميثـاقهم لعنّـاهم وجعلنا قلـوبهم قاسيـة يحرِّفون الكلـم عن مواضعه ، ونسُـوا حظاً مما ذكروا بـه ، ولا تزال تطلع على خائنـة منهم ، إلا قليلاً منهم، فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين ﴾** .

وأنت تـرى ، أن الكلام واضح في تـرتيب المسبَّب على السبـب ، فبسبب نقضهم ميثـاقهم : لعنهم الله ، وأبعـدهم عن رحمتـه ، وجعل قلوبهم قـاسية يحرفون الكلـم عن مواضعه .. وهكـذا ـ كما أشرنا في صدر هـذا الحديث ـ كانـت تلك القسوة في عـداد ما عاقبهـم الله به على نقضهم الميثـاق ، وهي قسوة رانت على قلوبهم ، فأصبحت تلـك القلوب ـ لغلظها وقساوتها ـ لا تتأثر بموعظة ، ولا تتحرك لكلمة هدى ، بل يعبث أصحابها بكلام الله .

و الذين لُعنوا ، وجُعلـت قلوبُهم قاسية يحرفون الكلم عـن مواضعه ، هم أجداد أولئك الـذين عانت منهم دعـوة الإسلام ما عانت في عهـد الرسول عليه الصلاة والسلام وبعـده ، وعانى هو نفسه ـ فداه أبي وأمـي ـ منهم ما

الله به عليم . وما تزال أمتنا ـ كما ينطق الواقع المضني ـ تعاني منهم ومن يقع في حبائلهم .

ومن أسلحتهم على أرض الواقع :غفلة أو تغافل القادرين ، عن الحقائق التي حملها الخبر الصادق إلى الأمة في شأنهم .

ولئن كانوا ـ وما يزالون ـ على السنن الذي أوضح الكتاب العزيز ، وأكدته الوقائع في سيرة الرسول ﷺ ، وما كان من شأنهم معه ، ناهيك عن تحرك الأفعوان بسمومه عبر التاريخ ... لئن كان الأمر كذلك : إنه لكبير حقاً : إعراض المسلمين عن الحق الصراح في منابع وجودهم الفكري والحضاري ، وغفلتهم ، أو تغافلهم عما يجب على وجه الحقيقة ، وأن يؤخذوا بزخرف المصطلحات والمعايير التي تشم منها رائحة يهود ..

ألا إن أخذ الحذر ـ كما أمر الله ـ واجب حتم ، لا يماري فيه إلا من رانت الغفلة على قلبه ، أو كان جاهلاً بأبجديات التاريخ .. ولله عاقبة الأمور .

من الحقائق التي أبرزها القرآن وكشف عنها بوضوح : حقيقة أن مرض القلوب الذي بات سمةً من سمات يهود بني إسرائيل ، كان مما عاقبهم الله به على نقضهم الميثاق الذي واثقوا الله عليه ، وهو أن يكونوا على الصراط السوي ، عملاً بالدين ، واستقامة على الطريق التي يقتضيها الإيمان . وذلك ما نجده في العديد من المواطن ، ومنها ما جاء في سورة المائدة من قول الله جل وعز : ﴿ **ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم ...** ﴾ الآية ، وقوله سبحانه وتعالى :﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسيةً يحرفون الكلم عن مواضعه ، ونُسوا حظاً مما ذكروا به ، ولا تزال تطّلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم ، فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين** ﴾ .

وأجدني مسوقاً إلى التذكير بما كان أن أشرت إليه من قبل ، من أن الآية الثانية ، وهي التي نصت على العقوبة ، كشفت عن ترتيب المسبّب على السبب وذلك في قوله تعالى : ﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه** ﴾. الآية . فبنقضهم ميثاقهم ، أي : بسبب نقضهم ميثاقهم .. قال العلماء : وفي الكلام محذوف اكتفي بدلالة الظاهر عليه ؛ وذلك أن معنى الكلام : فمن كفر بعد ذلك منكم ، فقد ضل سواء السبيل ، فنقضوا الميثاق ، فلعنّاهم ﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم** ﴾فاكتفى بقوله : ﴿**فبما نقضهم ميثاقهم** ﴾ من ذكر « فنقضوا » وهذا من بلاغة القرآن التي لاتجارى .

وهكذا فإن الله ـ وهو الحكيم العليم ـ لم يظلمهم شيئاً ، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ، بنقضهم الميثاق ، فحلّت عليهم اللعنة ، وجعل الله قلوبهم قاسية بعيدة عن التوفيق ، ليس فيها قطرة من ندى الخير ، فلا تخشع لذكر الله ، ولا تلين لموعظة ، ولا تتأثر بكلمة من كلمات الحق .

هذا : وبسبب من قسوة تلك القلوب ، هان على أصحابها أن يحرفوا الكلم عن مواضعه ؛ فتراهم يغيّرون ويبدلون ، ويتأولون كلام الله على غير وجهه ، كل أولئك من أجل أن يتخلوا عن مسؤولية الكلمة ، ويُعفوا أنفسهم من العمل بما أنزل الله .

وليس ذلك فحسب ، بل إن فريقاً منهم كانوا يكتبون بأيديهم غير الذي أنزل الله عز وجل على نبيهم، ثم يقولون للجهلة من الناس الذين لا يفرقون بين الحق والباطل : هذا كلام الله المنزل على موسى ، والتوارة الموحى بها إليه . ونقرأ في سورة البقرة وعيداً شديداً لهذا الصنف من اليهود ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ **فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون** ﴾ .

وكما قلت ــ غير مرة ــ : لما كان الأبناء على نهج الآباء ؛ قسوة قلب ، واستشرافاً للضلال ، وافتراء على الله ، واحتيالاً على أوامره ونواهيه، راضين كلّ الرضى عن صنيعهم .. فكثيراً ما يجيء الخطاب للأبناء ، باستنكار ما فعل الآباء والأجداد. وقد يجيء الكلام عن الآباء ، كأنهم أتوا ما فعله الأبناء. ولنترك للإمام الطبري أن يكشف عن هذه الحقائق التي تدلّ عليها تلكم الكلمات النورانية ، وهي تتحدث عمن نقضوا الميثاق ، فحلت عليهم اللعنة ، وجعلت قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ، وضلوا سواء

السبيل . قال رحمه الله : يقول عز وجل : (وجعلنا قلوب هؤلاء الذين نقضوا عهودنا من بني إسرائيل قاسِية ، منزوعاً منها الخير، مرفوعاً منها التوفيق ، فلا يؤمنون ولا يهتدون . فهم لِنَزع الله عز وجل التوفيق من قلوبهم والإيمان ، يحرفون كلام ربهم الذي أنزله على نبيهم موسى صلى الله عليه وسلم ، وهو التوارة ، فيبدلونه ، ويكتبون بأيديهم غير الذى أنزله الله عز وجل على نبيهم ، ثم يقولون لجهال الناس : هذا هو كلام الله الذي أنزله على نبيه موسى ﷺ والتوارة التي أوحاها إليه) .

ثم أشار شيخ المفسرين إلى مخاطبة الأبناء بصنيع الآباء والكلام على الآباء، كأنهم أتوا ما أتى الآباء، لما أن المنهاج متحد في الكذب على الله ، والجراءة على نقض المواثيق ، وخيانة العهود ، فقال رحمه الله : (وهذا من صفة القرون التي كانت بعد موسى من اليهود ممن أدرك بعضهم عصر نبينا محمدﷺ . ولكن الله عز ذكره أدخلهم في عداد الذين ابتدأ الخبرَ عنهم ممن أدرك موسى منهم ؛ إذ كانوا من أبنائهم ، وعلى منهاجهم في الكذب على الله، والفرية عليه ، ونقض المواثيق التي أخذها عليهم في التوراة).

ومما نجد في الآية الكريمة : أن تحريف الكلم عن مواضعه ،ليس الموبقةَ الوحيدة التي اقترنت بقسوة القلوب عند القوم ـ والعياذ بالله ـ فنحن نقرأ فيها قول الله عز وجل شأنه : ﴿ ونسوا حظاً مما ذكروا به ﴾ . جاء ذلك بعد قوله تعالى : ﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه** ﴾ . والحظ هنا : النصيب ، فقد روى الطبري عن السدي أنه قال : ﴿ **ونسوا حظاً مما ذكّروا به** ﴾ يقول : تركوا نصيباً . والمعنى : تركوا أمر الله رغبة عنه، فتركهم الله ؛ إنه تبارك وتعالى لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون . فهؤلاء اليهود : تركوا أمر الله إيّاهم بالإيمان

والطاعـة ، مع قيام الأدلـة ووضوح الآيات، فلـم يفعلوا ، فجازاهـم الله بأن تركهم. روى أبـو جعفر بسنده عن الحسن البصري رحمه الله عنـه أنه قال : (تركوا عُـرى دينهم ووظائف الله تعالى التي لايقبـل العمل إلا بها. ووظائف الله هنا : فروضه التـي ألزمها عباده في الإيمان به وطاعتـه و إخلاص النية له سبحانه). و إذا تصورنا القسوة التـي رانت على قلوبهم ، فجعلتها لا تخشع لذكر الله ، ولا تستجيب لكلمة الله، وجدنا ذلك الذي حصل منهم ـ مما دل عليه قوله تعالى: ﴿ ونسوا حظاً مما ذكروا به ﴾ـ امتداداً طبيعياً لتلك القسوة . نقـل الحافظ ابـن كثير رحمه الله عن بعضهـم قولـه في معنى هـذه الكلمات المباركات : (تركـوا العمل فصاروا إلى حالة رديئة ، فـلا قلوب سليمة ، ولا فطر مستقيمة ، ولا أعمال قويمة) .

والحق أن الآية الكـريمة ، تذكـرنا بما جـاء في الآية السابعـة والستين من سورة التوبة بشـأن المنافقين حيث وصفوا ـ فيما وصفوا بـه ـ أنهم نسوا الله فنسيهم؛ ذلكم قـول الله تبارك وتعالى : ﴿ المنافقون والمنافقـات بعضهم من بعض يـأمرون بالمنكـر وينهون عـن المعروف ويقبضون أيـديهم ، نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هـم الفاسقون ﴾ . أرأيت !! نسي المنـافقون ذكـرالله ، فعاملهم معاملة من نسيَهم . وعنـد الكلام على المنافقين في سورة المجادلة، نقرأ قـول الله في الآية التاسعة عشرة : ﴿استحـوذ عليهم الشيطان فأنسـاهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ .

والجسور الظـالمة ممتدة أبداً بين المنافقين واليهـود عبر التاريخ ، بـدءاً من عصر النبي عليه الصلاة والسلام ؛ فالقلوب قاسية جافةلاتخشع ولا تتعامل مع كلمة الخير ، والانحراف متأصل في النفوس .

أما بعـد : فإن الحقيقـة الناطقـة في السمات التي تطبـع سلوك اليهـود في

الماضي والحاضر . هي ــ كما نرى ـ حقيقة قرآنية، لايسع مؤمناً جهلها أو تجاهلها .

ولكم نكون منصفين مع تلك الحقيقة، ومع الصدق فيما يجب أن يكون عليه الموقف مع اليهود ، ومن ينصر باطلهم ...لكم نكون منصفين وقّافين عند حقنا الذي لا مرية فيه ، إذا نحن اتخذنا من ذلك على وجه العموم ، ومما تعطي المقدمات فيه من نتائج على وجه الخصوص ، منهجاً مدروساً بعناية ، ينير السبيل إلى تغيير الواقع الذي يغشى بظلامه الأمة ، وتجاوزِه إلى واقع جديد ، تعلو فيه كلمة الله ويفوز أهل الحق بالنصر والتمكين ، ﴿**ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو القوي العزيز**﴾.



ينسون ربهم وينقضون الميثاق

في عود على بدء ، مع الحديث عن العقوبة التي عاقب الله بها يهود بني إسرائيل ؛ على نقضهم الميثاق الذى واثقوا الله عليه ، وانحرافهم عن الصراط السوي .. نتابع الرحلة المباركة ، مع كلمات مباركات من سورة المائدة ، جاءت في شأن هؤلاء القوم الذين لم يظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ؛ ذلك بأنهم في مواقفهم من الدين الموحى به من عند الله، يجنحون إلى خيانة العهد ، ونقض الميثاق، ولا يعبؤون بوعد ولا وعيد ، ولا يلتفتون إلى ما يريهم الله من الآيات الواضحات البينات ، والعبرِ الناطقة بالحق ، أن لو كانوا من أهل الاعتبار .

من أجل هذا : حلّت بهم النقمة ، فجعل الله قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ، ونسوا حظاً مما ذكروا به ، وكثيراً ما لجأ أحفادهم إلى خيانة رسول الله عليه الصلاة والسلام ؛ فكان ذلك عنوان التطابق بين الأحفاد والأجداد ؛ إذ الداء العضال واحد .

ولا تسل ــ وقسوة القلب تعمي البصيرة ــ عن جراءتهم على تحريف الكلم عن مواضعه ، وتأويله على غير وجهه ، وهكذا فسدت فهومهم ، وساء تصرفهم في آيات الله ، وتأولوا كتابه على غير ما أنزله ، وحملوه على غير مراده ، وقالوا عليه ما لم يقل ، بل عمدوا إلى كتابة كلام من عندهم ، وادعاء أنه من التوراة التي أنزلت على موسى عليه الصلاة والسلام .

وليس بدعاً من الانتفاع بالعبر والدروس ، وربط النتائج بالمقدمات من صنيع هؤلاء القوم ، أن يقود الكلام على نسيانهم حظاً مما ذكروا به ، إلى ما

ذكر الله من شأن أحوال المنافقين في سورة التوبة من قولـه سبحانه وتعالى : ﴿**المنـافقون والمنـافقات بعضهـم من بعـض يأمـرون بالمنكـر وينهون عـن المعروف ، ويقبضون أيديهم، نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون**﴾. الأمر الـذي يدل على أن النسيان المشـار إليه : خصلة بغيضـة يشترك فيها اليهود والمنافقون ؛ ففي شأن اليهود : نقرأ في سورة المائدة قوله تعالى : ﴿ **فبما نقضهم ميثاقهـم لعناهم وجعلنا قلوبهم قـاسية يحرفون الكلم عـن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به** ﴾ . وفي شأن المنـافقين : نقرأ هنا في سورة التـوبة : ﴿**نسوا الله فنسيهم**﴾. أي عاملهم معـاملة من نسيهم كما في قـوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ **فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون**﴾. وقوله تعالى في سورة السجدة : ﴿ **فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم**﴾. وقوله في سورة المائدة : ﴿ **فقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا**﴾. وختمت الآيـة في سورة التوبـة بقوله جـل وعز : ﴿**إن المنافقين هم الفـاسقون**﴾ . أجـل وبصيغة التـأكيد : هـم الفاسقـون: أي الخارجـون عن طـريق الحق، الـداخلون في طـريـق الضلالـة ... وما أكثـر السمات الضالـة التي تجمـع دائما بين اليهودي والمنـافق ... والمهـم أن يحذر المسلمون ويتنبهوا إلى هذه الحقيقة .

هذا وفي سورة طه: صـورة تزيد الأمر وضوحاً في شـأن نسيان الله وآياته ـ وهو خصلة من خصال اليهود والمنافقين ـ وتبعث في نفس المؤمن الكثير من الخوف والرهب ، من أن يجنـح ـ لا سمح الله ـ عن الطريـق السوي ، ويقع فيما وقع فيه أولئك الجانحون الضائعون ، من الإعراض عن ذكر الله : فتحقَّ عليه عقوبة ذلـك، بأن ينساه الله من رحمته وعونه في الـدنيا والآخرة . ذلكم قول الله تبـاركت أسماؤه : ﴿ **ومن أعرض عـن ذكري فإن له معيشـة ضنكاً.**

ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ؟ . قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾ .

هذا ، وبالإضافة إلى النسيان الذي أومأنا إليه ، دلت الآية الثالثة عشرة من سورة المائدة ، أن اليهود ما يزالون يعاودون الخيانة لرسول الله ﷺ والمسلمين؛ فبعد قوله تعالى : ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ﴾ . جاء قوله سبحانه خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام : ﴿ ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم .. ﴾. هكذا يخاطب الله صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه ، مقرراً خصلة من خصال اليهود ، ومحذراً المؤمنين ، فيقول سبحانه : ولا تزال يامحمد تطلع من اليهود ، الذين أنبأتك نبأهم من نقضهم ميثاقي ونكثهم عهدي ، وانحرافهم عن الصراط السوي ، مع الوعد والوعيد ، ومع أياديَّ عندهم ونعمتي عليهم ... لا تزال تطّلع على مثل ذلك من الغدر والخيانة والكذب والفجور ، إلا قليلاً منهم ؛ فالقليل منهم لم يخونوا ، والأكثر يخونون ، ويكذبون ، ويفجرون .

والخائنة : الخيانة . وقد روى الإمام الطبري عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ ولا تزال تطلع على خائنة منهم ﴾ قال : على خيانة وكذب وفجور ، ويبدو أن المراد من الخيانة هنا ، ما هموا به من الفتك بالرسول ﷺ ـ وإن كان اللفظ عامّاً ـ ، وقد حصل ذلك غير مرة . والهمُّ بالفتك بالرسول الله ﷺ من قبل اليهود أو غيرهم ، هو ما أشارت إليه الآية الحادية عشرة من سورة المائدة : ذلكم قوله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم ، فكفَّ أيديهَم عنكم، واتقوا الله وعلى الله فليتوكل

المؤمنون ﴾ . فقد روى العوفي عن ابـن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية : « أن قـوماً مـن اليهود صنعـوا لرسـول الله ﷺ ولأصحابـه طعامـاً ليقتلوهـم ، فأوحى الله إليه بشـأنهم ، فلم يأت الطعام ، وأمر أصحابـه فأتوه » رواه ابن أبي حاتـم. وجاء في «تفسير القـرآن العظيم» عند الحافـظ ابن كثير قـوله : وقال أبو مالك : نزلت في كعب بن الأشرف وأصحابه حين أرادوا أن يغدروا بمحمد ﷺ في دار كعب بن الأشرف . رواه ابن أبي حاتم أيضاً ، وكعب بن الأشرف من رؤوس اليهـود ـ كما هـو معلوم ـ وهذا مـا نجده عنـد الطبري حيث روى بسنده عن أبي مالك في قوله : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكفَّ أيديهم عنكم** ﴾ . قال: نزلت في كعب بن الأشرف وأصحـابه حين أرادوا أن يغدروا برسول الله ﷺ . وذكر محمد بن إسحاق بن يسار ومجاهـد وعكرمة وغير واحد ، أنها نزلت في شأن بنـي النضير ؛ حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الـرحى ، لما جاءهـم يستعينهم في دية العـامريين ، ووكلوا عمـرو بن جحش بـن كعب بذلك ، وأمروه ـ إن جلس النبيﷺ تحت الجدار ، واجتمعوا عنده ـ أن يلقي تلك الرحـى من فوقه ، فأطلـع الله النبي ﷺ على ما تمالؤوا عليـه ، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه فأنزل الله هـذه الآية . وقال مجاهد وغيره : يعني بذلك تمالؤهم على الفتك بالنبي ﷺ .

وعلى هذا تكون الخيانة تمالؤ اليهود ـ قاتلهم الله وشركاءَهم في الإثم ـ على اغتيال النبي ﷺ ـ وإن تعـددت الصور ـ إذ سمُّوه أيضاً ؛ فالآيـة الكريمة، تدل على تعـدد وقائع الخيانـة بقولـه تعالى : ﴿ **ولا تـزال تطلع على خـائنـة منهم**﴾. على أن هنالـك رواية أخرجهـا الحاكم في المستدرك وصححهـا عن جابـر بن عبـدالله رضي الله عنهما ، تجعل سبـب النزول قصـة أعرابي يـدعى

غوث بـن الحارث ، دفعه قوم مـن العرب إلى اغتيـال الرسول عليـه الصلاة والسلام ، ومنع الله نبيـه عليه الصلاة والسلام مما أراده ذلك الأعرابي ، وفي القصة طول.

والله المسؤول أن يبصر الأمة بشأن أولئك العـاتين عن أمر ربهم ، الذين لا يؤمـن لهم جانب ، كيف وقـد قال الله لنبيه عليه الصـلاة والسلام : **﴿ولا تزال تطلع على خائنة منهم.. ﴾** والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .



قضايا ثلاث
واليهود .. هم اليهود

كانت رحلة مباركة ، تلك التي سعدنا من خلالها بصحبة عدد من آي الكتاب الحكيم ، كان من مضموناتها : مجموعة قضايا بالغة الأهمية في حياة المسلمين، والحفاظِ على وجودهم المتميز بالإسلام؛ عقيدة وشريعة وسلوكاً .. بعيداً عن تيه الضياع ، والتقليدِ الأعمى لأولئك الذين أوتوا الكتاب من يهود ونصارى ، فطال عليهم الأمد ، وجنحوا عن الصراط السوي ، فقست قلوبهم وانقلبوا على أعقابهم ، فكانوا من الخاسرين .

كان مبدأ الرحلة ، تذكيرَ المؤمنين بالعمل أبداً ، على أن تخشع قلوبهم لذكر الله، كيما ينعكس ذلك على الجوارح ، فتكون الاستقامة والتوجه الصادق إلى الله ، بتقواه وإخلاص العبودية له .. وتحذيرَهم من أن يصيبهم ما أصاب أولئك الذين أوتوا الكتاب من قبل ، فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم ؛ وقسوة القلب إيذان بالانحراف والضلال ، وقلوب العباد بيد الله وهو سبحانه القادر على تليينها وعطفها إلى الحق ، فهو الذي يحيي الأرض بعد موتها ، وما على العباد إلا أن يصدُقوا في حسن التوجه إليه .

وهذا الذي أشير إليه ــ بخطوطه العامة ـ وقفتنا عليه آيتان كريمتان من سورة الحديد ، هما قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون . اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون...** ﴾ .

وعلى هدي الكلمة القرآنية المعطاء، قادنا الحديث عن هذه القضية، إلى أن يهود بني إسرائيل، قد رأوا من الآيات البينات والمعجزات الباهرات مارأوا ـ ومنها إحياء الموتى بإذن الله ـ وبدل أن ترق قلوبهم وتنفسح لبشاشة الإيمان أن تخالطها، قست وجفّت؛ فهي كالحجارة أو أشد قسوة. ولما كان الأمر كذلك: كان الطمع في إيمانهم، موضع عتب على المسلمين. كيف وقد كان من آثار تلكم القسوة العمياء التي رانت على القلوب، أن فريقاً منهم كانوا يكتبون كلاماً من عندهم، ثم يزعمون للجهلة الذين لا يفرقون بين الحق ونقيضه: أن هذا الكلام كلام الله، وأنه التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه الصلاة والسلام.

ولم يقتصر الأمر على هاتين الموبقتين .. بل كان هنالك النفاق الذي يقصد إلى تتبع ما يزعمون أنه ثغرات عند المسلمين، والاطلاع على أسرار المجتمع المسلم، ومحاولة العمل على خلخلة الصف، من طريق المكر والتزويق الفكري والدّس اليهودي الآثم، فإذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض، كان العتب والتأنيب، إذ يقول لهم زعماؤهم: **﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجُّوكم به عند ربكم، أفلا تعقلون؟!﴾**.

وكان مصدر العطاء لهذه القضية، التي نلمح إليها بخطوطها العريضة أيضاً، ما جاء في سورة البقرة بعد الكلام عن تعسف بني إسرائيل، وتنطعهم في شأن البقرة التي أمروا بذبحها من قول الله تبارك وتعالى: **﴿وإذ قتلتم نفساً فادَّارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون. فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون. ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدة قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لمايهبط من خشية الله**

وما الله بغافل عما تعملون ﴾. هذا عن الشق الأول للقضية الثـانية ، أما عن الشق الثاني : فهاكم ما جاء بعد ذلـك من الآيات التي تنبه وتحذر ، وتأخذ بيد المسلمين إلى سـاحة اليقظـة التي تحول دونهم ودون أن يـؤخذوا بظـواهر الأمور بدلاً عـن حقائقها ،أو أن ينطلي عليهم النفاق و إظهـار العدو غيرَ ما يبطن. كيما يكونوا قادرين بعد ذلك كله على الحكم الكلي؛ نتيجة الاستقراء المبصر للجزئيات والتصرفات .

والآيات التي هي مصدر العطاء لهذا الشق الثاني للقضية، والتي تلت ما أثبتناه قريباً ، هي قـول الله جلت قدرته : ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنـوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون، و إذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنـا و إذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون؟ أولا يعلمون أن الله يعلم مايسرون وما يعلنون ؟ ﴾** .

أما القضية الثالثة التي كانت على طـريق الرحلة : فهي ما أعلنته الكلمة القرآنيـة الهادفة بجلاء لا يحتمل اللبـس ، أن ما مُنيَ به يهود بنـي إسرائيل : من قسوة القلب وغلظ الأكباد ـ وقد جـرّ ذلك عليهم من الوبال ما جرّ ،لما أنه كان طريقهـم إلى العماية واستبدال الذى هو أدنى بـالذي هو خير ـ... أن ما مُنوا به مـن ذلك كله ، كان عقوبةً مـن الله لهم ، انضمت إلى اللعن، وهو الطرد من رحمة الله ، جزاء ما اجترحـوا من نقض الميثاق الذي واثقوا الله عليه ، فـالقلوب القـاسية لا تخشع لـذكر الله وما نـزل من الحق ، ولا تتـأثر بمـوعظة ، ولا تستجيـب لتـذكير .. ومن هنـا كـان التمادي في الضلالـة : معاداةً لرسول الله ، ومظاهرةً للباطل على الحق ، وتعدياً لحدود الله ، وتراهم أبداً ـ كما هو واقـع أجيالهم القديم منها والحديث ـــ سادرين في الغي ، وفي

طغيانهم يعمهون ، ومـن مظاهر ذلك ، أنهم يحرفون الكلم عـن مواضعه ، ونسوا حظـاً مما ذكـروا به ، فعاقبهـم الله بأن حجب عنهـم رحمته ــ نسوا الله فنسيهم ــ كل هذا مـع الخيانة الدائمـة من أكثرهـم للرسول عليـه الصلاة والسلام.

وقبسُ الهداية لهذا الذي أومأتُ إليه واكتفيتُ بالإلماحة ، تذكيراً بما سبق ، كان مصدره ما جاء في سورة المائدة من قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيـل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقـال الله إني معكم لئن أقمتم الصـلاة وآتيتم الـزكاة وآمنتم بـرسلي وعزرتموهم وأقـرضتم الله قـرضاً حسناً ، لأكفرن عنكـم سيئاتكم ولأدخلنكم جنـات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكـم فقد ضل سواء السبيل** ﴾. ونقرأ بعد هذا في الآية التي تلي ، قول الله عز وجل : ﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ، ونسـوا حظاً مما ذكروا به ، ولاتزال تطلع على خـائنـة منهـم إلا قليـلاً منهـــم ، فـاعـف عنهـم واصفـح إن الله يحب المحسنين** ﴾ .

تلكم هـي القضايـا الثلاث ، والآيات الكـريمات التي كـانت دلالاتُها طريقَنـا إلى تبيُّنِها ـ والكلام على يهود بنـي إسرائيل ـ أردت أن أذكّـر بها من طريـق اللمحة العـابرة ، بعد أن عـرضت لها مفرّقـةً في صفحات قـريبات ، وذلك بغية الحفاظ على التماسك بين تلكم القضايا قدر المستطاع .

ولعـل من الخير ، أن أجـدد التـذكير بما نجـد في الكتاب والسنـة ، مـن خطـاب اليهـود في عصر النبـي ﷺ ، كـأنهم هم الـذيـن اقترفـوا مـا اقترف أجدادهم الأولون ، بل وتوجيه الكلام أحياناً على أنه للآباء ، مع أن الفاعلين هم الأحفاد، كما في قـوله تعالى : ﴿**ولاتزال تطّلع على خائنـة منهم إلا قليلاً**

منهم﴾ كل أولئك لأن النهج ـ كما أسلفت ــ واحد ، والمنطلقات الفاسدة الضالة واحدة ، ولأن المتـأخرين راضون كل الرضى عما فعل سـابقوهم من الآباء والأجداد .

وفي خطوة تصلنـا بالواقـع المعاصر : أليس في ذلـك كله درس أيُّ درس لأمة الإسلام أن تضع نصب عينيها في تعاملها مع أعداء الله ، ومن يظاهرهم على الباطل ، تلك الحقيقة التي أعلنها كتـاب الله وبيانه من سنة رسول الله: وهـي أن اليهود هـم اليهود مهما اختلفـت الأزمنة وتعـددت العناويـن ، وأن يكون ذلـك باعـث يقظة على سـاحة الفكـر والاقتناع ؛ فـالصهيونيـة مثلاً ، مخلب أزرق من مخالب اليهود . والوقـائع المتجددة كل يوم ، أوضح دليل على ما نقول، ولن تغير الزخارف من الحقيقة شيئاً .

ولقد عنـي علماؤنا الأولـون ، أيَّما عنايـة بتبيان العـلاقة المشـار إليها بين الآيات، كيما يكون المسلمون أبـداً على بينة من أمرهـم ؛ ها نحـن نرى الإمام الطبري ـ وهو يحاول ترجيح ما قال ابن عبـاس بأن المقصودَ بالميثاق في قوله تعالى خطابـاً للمؤمنين : ﴿**واذكروا نعمـة الله عليكم وميثاقه الـذي واثقكم به**﴾. العهدُ الذى عاهـدهم به، حين بايعوا رسولـه محمداً ﷺ على السمع والطاعـة له في المنشط والمكـره .. ها نحن نـراه يعلل ذلك بقـوله : لأن الله ـ جلَّ ثناؤه ـ ذكـر بعقب تذكرة المؤمنين ميثاقَه الذي واثقهم بـه ، ميثاقه الذى واثـق به أهـل التوراة ــ بعد مـا أنزل كتـابه على نبيـه موسـى عليه الصـلاة والسلام، فيما أمـرهم به ونهاهـم فيها ــ فقال : ﴿ **ولقد أخـذ الله ميثاق بنـي إسرائيل وبعثنـا منهم اثنـي عشر نقيباً** ﴾. الآيات بعـدها ، منبهـاً بذلـك أصحـاب محمـد رسول الله ﷺ على مـواضـع حظـوظهـم من الـوفـاء لله بما عاهدهم عليه ، ومعرِّفَهم سوء عاقبة أهل الكتاب ، في تضييعهم ما ضيعوا

من ميثاقه الذي واثقهم به في أمـره ونهيه ، وتعزيز أنبيائه ورسله ، زاجراً لهم عن نكث عهودهم ، فيُحِلَّ بهم ما أحلّ بالناكثين عهودَهم من أهل الكتاب قبلهم .

هذا: ومما يزيد الأمر توكيداً ، أن الآية التي ذكَّرت المؤمنين بالميثاق والسمع والطاعة : ختمت بصورة من الوعيد ، هو قوله تعالى : ﴿ **واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور** ﴾ . اتقوا الله أيها المؤمنون ، فخافوه أن تبدِّلوا عهد الله وتنقضوا ميثاقه الذي واثقكم به ، أو تخالفوا ما ضمنتم له بقولكم : سمعنا وأطعنا ، بأن تضمروا له غير الوفاء بذلك في أنفسكم ، اتقوا الله وخافوا أن تبدلوا أو تنقضوا ؛ فإن الله مطلع على ضمائر صدوركم ، وعالم بما تخفيه نفوسكم ، لا يخفى عليه شيء من ذلك ، فيُحلَّ بكم من عقوبته ما لا قبل لكم به ، كالذي حلَّ بمن قبلكم من اليهود ؛ من اللعن والمسخ وصنوف النقمة ، وتصيروا في معادكم إلى سخط الله وأليم عقابه .

ألا وإن خصوص السبب لايمنع عموم اللفظ ـ عند الجمهور كما سبق ـ ، فأنت واجد ـ وأنت تتلو هذه الآيات ـ كأنها تتنزَّل غضة طرية اليوم ، لتقول لأمة الإسلام محذرة منذرة : استيقظوا ، تنبهوا .. إن الخطوة المتقدمة على طريق التمكين والنصر على أعداء الله وأعداء الحق ، وإنقاذ الأقصى الذي بارك الله حوله ، وكل أرض مغتصبة من أرض الإسلام ... إن الخطوة المتقدمة على هذه الطريق ـ التي لها ما لها من التكاليف ـ تبدأ من تمثُّلٍ إيماني لهذه الحقائق وأمثالها، وتوظيفِ ذلك على صعيد الواقع العملي في ساحات المواجهة والتحدي ـ وما أكثرها وأوفر شعابها ـ والله المستعان ..

والنّصارى

شركاؤهم في الإثم

في متابعة لبعض ما جاء في الكتاب والسنة من توجيه المسلمين ــ وهم أصحاب الرسالة الخاتمة وأمة الشهادة على الناس ــ إلى أن يكون لهم وجودهم المتميز بارتباطهم بمنابع الهداية ، وأن يأخذوا حذرهم أبداً من الغفلة عن بواطن الأمور ، ومن الوقوع فيما وقع فيه أهل الكتاب الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات، والذين أوتوا الكتاب ، فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون .

في متابعة لهذا الهدي الرباني: نحن على موعد ، مع الإشارة إلى أن ما رأينا من أن الضلالة العمياء التي رانت على القلوب في يهود بني إسرائيل ـ وكانت عقوبة مضمومةً إلى لعنهم وطردهم من رحمةالله ـ جزاء ما اقترفوا من نقض الميثاق الذي عاهدوا الله عليه .. مرتبط ـ والله أعلم ــ تمام الارتباط بقضية التحذير الجازم ، تحذير المسلمين من الانزلاق إلى أية مهواة انزلق إليها اليهود أو النصارى ؛ فالمسلمون ملزمون بالوفاء بعهد الله وميثاقه ، وأن يكونوا على الصراط السوي : نشداناً للحق ، وإقامة للعدل ، وإلا أصابهم ما أصاب أولئك المغضوب عليهم والضالين الذين نقضوا ميثاق الله الذي واثقهم به ، فحلّ بهم ما حلَّ من اللعن وقسوة القلب وغلظ الأكباد ، فكان ذلك سداً منيعاً دونهم ، ودون أن تنالهم رحمة الله في هذه الدار ، أو في الدار الآخرة ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، وكفى بالله حسيباً .

وقد سُبقت الآيتان اللتان عرضتا للميثاق، ونقضه ، وعقوبة يهود بني

إسرائيل على ذلك النقض ، وهما الآية الثانية عشرة من سورة المائدة المبدوءة بقـوله تعـالى : ﴿**ولقد أخـذنا ميثـاق بني إسرائيـل وبعثنا منهـم اثني عشر نقيباً..**﴾. والآية الثـالثة عشرة المبـدوءة بقولـه جلَّ شـأنه : ﴿ **فبما نقضهـم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ..** ﴾. سبقت الآيتان بتذكير المؤمنين بنعمة الله وميثـاقه الـذي واثقهم به ، وأن تكـون تقوى الله نصـب أعينهم . وأمرهم بأن يكـونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، وأن يـدوروا مع الحق حيث دار ، ويقيموا العدل دون تأثر بأي عارض مهما كان شأنه .

ولكن قبل الإتيان بالنص ، أود التذكير بأن الحديث في الآيتين الماضيتين في شـأن العهد ونقضـه ، لم يقتصر على يهود بني إسرائيـل ، بـل امتد ذلـك الحديث إلى النصـارى ـ كما أشـــرنا إلى تلك الحقيقـة المقررة بشـأن الفريقين آنفاً ـــ فبعـد قوله تعالى في الآيـة الثالثة عشرة من سـورة المائدة ـ والضمائر عـائدة إلى يهود بني إسرائيـل ـــ : ﴿ **فبما نقضهم ميثـاقهم لعناهـم وجعلنا قلوبهم قاسيـة يحرفون الكلم عن مواضعـه ونسوا حظاً مما ذكـروا به ولا تزال تطلـع على خائنـة منهم إلا قليـلاً منهـم فاعـف عنهم واصفـح إن الله يحب المحسنين**﴾. بعد هذه الآية الكريمة ، نقرأ قول الله تباركت أسماؤه : ﴿ **ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون** ﴾ .

هكذا ترى : بعـد الحديث عن أولئك ، يجيء قـوله تعالى : ﴿ **ومن الذين قالوا إنـا نصارى** ﴾ الآيـة . أي ومن الـذين ادعـوا لأنفسهم أنهم نصـارى متابعـون المسيح ابن مـريم عليـه السلام ـ وليسـوا كذلك ـــ أخذنـا عليهم العهود والمواثيق على متابعـة الرسول ﷺ والوقوف عند الحق الـذى جاء به ، ومناصرتـه ومؤازرته ، واقتفـاء آثاره ، وعلى الإيمان بكـل نبي يرسلـه إلى أهل

الأرض ، ففعلوا كما فعل اليهود ، فخالفوا عن أمر الله واستبدلوا الكفر ومناهضة الرسول عليه السلام ، بالإيمان به ومتابعته ومناصرته ، والسير وفق هديه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة** ﴾. ثم جاء التهديد والوعيد للنصارى ، بما ارتكبوه من الكذب على الله ورسوله، وما نسبوه إلى الرب ـ عز وتقدس ، وتعالى عن قولهم علواً كبيراً ـ فقال تعالى : ﴿**وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون** ﴾. وسبحان الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

أما النص الذي ما بدٌّ من ذكره ، وهو المتعلق بما يجب أن يكون عليه المسلمون ، وتبدو العروة التى تربط بينه وبين ما كنا بصدده من الآيات قائمة ـ والله أعلم ـ على تنبيه المسلمين إلى ما يجب ، ووضع أيديهم على مكامن الخطر التي أوقعت أولئك الكافرين فيما أوقعتهم فيه .. أما ذلك النص : فهو ما تطالعنا به تلكم الآيات التى تبدأ بالآية السابعة من السورة نفسها سورةِ المائدة ، ذلكم قول الله تبارك وتعالى خطاباً للمؤمنين : ﴿**واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا ، واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور . ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون** ﴾. وفي أعقاب ذلك ، نقرأ قوله جل شأنه: ﴿ **وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم . يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همَّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم ، فكف أيديهم عنكم ، واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ .

يذكِّر الله تعالى عباده المؤمنين ، نعمتَه العظمى عليهم ، في شرعه لهم هذا الدين العظيم ، وإرسالِه إليهم هذا الرسول الكريم الموحى إليه بالقرآن ، وما أخذ عليهم من العهد والميثاق ؛ في مبايعته على الاقتداء بهديه ومناصرته ومؤازرته ، والقيام بأمور دينه الذي دعا إليه ، وإبلاغه عنه وقبوله منه. وفي ذلك جاء قوله تعالى: ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا** ﴾ . والمقصود بالميثاق ـ كما روي عن ابن عباس والسدّي ـ ميثاق الله الذى واثق به المؤمنين من أصحاب الرسول ﷺ ، وهو البيعة التي كانوا يبايعون عليها رسول الله ﷺ عند إسلامهم ؛ كما قالوا : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وأثرة علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله . وقال الله جل شأنه : ﴿ **وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين** ﴾. وقيل: هذا تذكير لليهود بما أخذ عليهم من المواثيق والعهود في متابعة محمد ﷺ والانقياد لشرعه ، روى ذلك علي بن طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما . وقيل : الميثاق تذكار بما أخذ ربنا تبارك وتعالى من العهد على ذرية آدم حين استخرجهم من صلبه وأشهدهم على أنفسهم .﴿ **ألست بربكم قالوا : شهدنا** ﴾ . وقد روي ذلك عن مجاهد ومقاتل بن حيان .

ورجح الإمام الطبري القول الأول ، وهو التذكير بنعمة الهدى إلى الإسلامِ والبيعةِ التي كانوا يبايعون عليها رسول الله ﷺ . وإذن : فأوفوا لله أيها المؤمنونَ بميثاقه الذي واثقكم به ، ونعمته التي أنعم عليكم ، في ذلكم بإقراركم على أنفسكم بالسمع له والطاعة فيما أمركم به ، وفيما نهاكم عنه ، يوفِ لكم بما ضمن لكم الوفاء به ـ إذا أنتم وفيتم له بميثاقه ـ من إتمام نعمته عليكم ، بالتمكين لكم في الأرض ، ونصركم على عدو الله وعدوكم ،

وبإدخالكم جنتَـه ، وإنعامكم بالخلود في دار كرامته ، وإنقاذكـم من عقابه وأليم عذابه .

والذي دعا شيخ المفسرين إلى ترجيح القـول المشار إليه، هو ما جاء بعد ذلك بشأن ميثاق الله الـذي واثق به أهل التوراة ؛ الأمر الذي يؤكـد ما ذكرنا آنفاً عن العـلاقة بين هذه الآيات وبين قـوله تعالى : ﴿ **ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً** ﴾ الآيات بعدها .. ولهذه المسألة مزيد بيان إن شاء الله .



احذروا
مهلكات اليهود والنصارى

هذه متابعة للرحلة المباركة التي زانها النظر في مجموعة من الآي في سورة المائدة ، تحمل ما تحمل من توجيه المسلمين إلى المنهج الأقوم ، وتباعد بينهم وبين التقليد لأولئك اليهود الذين غضب الله عليهم ، وكانوا من الخاسرين. فالمقطع الأول من تلكم الآيات ـ ويبدأ بالآية السابعة وينتهي بانتهاء الحادية عشرة : يخاطب المؤمنين بعدد من الأمور المهمة كان في مقدمتها : ما أمرهم به ، من أن يذكروا نعمة الله عليهم ، وميثاقه الذي واثقهم به ، فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام ، وفضله الذي عمهم به حيث قالوا : سمعنا وأطعنا ، فلم يخونوا الأمانة ، ولم ينكثوا العهد .. وأن عليهم أن يتقوا الله في كل شاردة وواردة ، ومن ذلك : هذا الذي يذكرهم به ، إن الله عليم بذات الصدور.

أما المقطع الثاني : فيبدأ بالآية الثانية عشرة وينتهي بانتهاء الرابعة عشرة، وقد تضمنت الآيات هنا ـ فيما تضمنته ـ تنديداً بما كان من بني إسرائيل ، من مخالفة عن أمر الله ، ونقض للميثاق الذي واثقوا الله عليه ، بأن يكونوا على الطريق التي دعاهم إليها نبيهم الموحى إليه موسى عليه الصلاة والسلام .. وعندما وقعوا في هذه المهواة الضالة، أحلّ الله بهم نقمته وغضبه، فطردهم من رحمته ، وجعل قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ، ونسوا حظاً مما ذكروا به ... وجاء أحفادهم ليؤكدوا حقيقة انحرافهم ، فسلكوا نهجهم الظالم المنحرف ، وكانوا على رضىً تامٍ بسوء صنيعهم ...

وكان من شنيع فعالهم : أنهم لا يتوقفون ـ إلا قليلاً منهم ـ عن خيانة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فهو لا يزال يطلع على خائنة منهم بين الحين والحين .

والناظر في الآيات ، بدءاً من الآية السابعة حتى ختام الآية الرابعة عشرة ، وهو على ذكر من أن الآيات في المقطع الأول : جاءت تخاطب المؤمنين ، وأن باقيَ الآيات جاءت تتحدث عن يهود بني إسرائيل ، وصنيعهم كما عرضت في الآية الأخيرة للنصارى وصنيعهم ... الناظر في الآيات متدبِّراً متبصِّراً ، ما بدٌّ من أن يلاحظ العلاقة الواضحة ، التي تقوم على تذكير المؤمنين وتنبيهم على عدد من القضايا ـ كما أسلفنا ـ وفي مقدمتها أن يذكروا نعمة الله وميثاقه الذي واثقهم به ، إذ قالوا : سمعنا وأطعنا ، لكيلا يقعوا فيما وقع فيه يهود بني إسرائيل ، ومن يشاركهم الإثم ، من نقض الميثاق مع الله وخيانة الأمانة ، والإعراض عن الحق ؛ الأمرُ الذي عاد عليهم بالنقمة والغضب ، فقست قلوبهم وراحوا يعبثون بآيات الكتاب المنزل ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، فيؤولونه على غير وجهه ، وقد يفترون على الله الكذب ، بأن ينسُبوا إليه كلاماً قالوه هم من عند أنفسهم ، ونسوا حظاً مما ذكروا به ، وتراهم مقيمين مقعدين على طريق الخيانة للنبي ﷺ ، ونكث العهد معه ـ إلا قليلاً منهم ـ على حينِ كان يعاملهم بالصدق والاستقامة والوضوح .

وقد آن لنا أن نورد الآيات التي نلمح إليها ، سواء ما يتعلق بالمسلمين ، وما يتعلق باليهود كيما يزداد الأمر وضوحاً ، ويتبيَّن للمسلم ـ وهو ينظر فيها مجتمعةً ـ مدى دلالتها على تحذير المسلمين من أي تهاون بالذاتية والأصالة ، ودعوتِهم إلى الارتباط الصادق بمنبع الهداية كما جاء بها النبي ﷺ ، وأن يأخذوا حذرهم من أي لون من ألوان التقليد الأعمى ؛ لأولئك المغضوب

عليهم الـذين استحـوذ عليهم الشيطـان ، فكان انحـرافهم سببـاً للسخط وقسـوة القلب والطـرد مـن رحمة الله . وكـان لذلـك مـا لـه من آثـار سيئـة وعقابيل، قال ربنا جل شـأنه خطاباً للمؤمنين : ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الـذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقـوا الله إن الله عليم بذات الصدور . يـاأيها الذيـن آمنوا كونـوا قوامين لله شهـداء بالقسـط ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلـوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون . وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم . والذيـن كفروا وكذبوا بـآياتنا أولئك أصحـاب الجحيم . ياأيها الذيـن آمنوا اذكروا نعمـة الله عليكم إذ هـم قوم أن يبسطوا إليكـم أيديهم فكـفّ أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ .

ثم قـال سبحانـه وتعالى مبيناً مـا صنع يهود بني إسرائيـل ومن بعـدهم الموالون المدّعون أنهم نصارى ، وما حلّ بهم من النقمة ، جزاء الانقلاب على الأعقاب ، ونقـض الميثاق : قـال جل ذكـره : ﴿ **ولقد أخـذ الله ميثاق بنـي إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً ، وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الـزكاة وآمنتـم برسلي وعزّرتموهـم وأقرضتم الله قـرضاً حسنـاً لأكفرن عنكم سيئاتكـم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، فمـن كفر بعد ذلك منكم فقـد ضلّ سواء السبيل . فبما نقضهـم ميثاقهم لعنّاهـم وجعلنا قلوبهم قاسية ، يحرِّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ، ولا تزال تطّلع على خـائنة منهم إلا قليلاً منهـم ، فاعف عنهـم واصفح إن الله يحب المحسنين . ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم ، فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يـوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون** ﴾ .



لا تقولوا راعنا .. ماذا قبلها ؟

يقودنا الحديث عن تنبيه القرآن المؤمنين على أن يأخذوا حذرهم - على كل صعيد - من أن يستحوذ عليهم الشيطان والهوى ، فيقعوا فيما وقع فيه يهود بني إسرائيل - الأجداد منهم والأحفاد - من انحراف عن الصراط السوي فكراً وعملاً وسلوكاً .

يقودنا هذا الحديث - الذي يبدو محورَ الهداية في عدد من آيات سورة المائدة التي مرت بنا من قبل - إلى ما نجد في سورة البقرة من نهي صريح للمؤمنين في عهد النبي ﷺ ، عن استخدام كلمة كان اليهود يستخدمونها - عند مخاطبة الرسول الكريم - مصطلحاً لهم ، يريدون به أمراً سيئاً على غير ما يتبادر من ظاهر اللفظ ؛ والكلمة هي قولهم : «راعنا» ونهي المسلمون عن استخدامها ، والاستعاضة عنها بكلمة «انظرنا».

فإذا كان التحول عن الذاتية وأصالة التعبير ، إلى التقليد حتى في المصطلح الذي اتخذه اليهود في خطابهم للنبي عليه الصلاة والسلام ، يجابَه بالنهي الصريح، والأمر باستعمال البديل ، فكيف بالتقليد الأعمى عندما يكون على صعيد المنهج في المعتقد ، والعمل والسلوك ، مما له تَعَلُّقٌ وصِلَةٌ بشيء من أمور العقيدة ، أو الشريعة، أو الأخلاق ؟؟ .. إنه الوجود الذاتي للأمة المسلمة الذي لا يكون على الحقيقة ، إلا مع الارتباط الواعي بأصول الهداية ومنابعها الخيِّرة ، والإفادة من توجيهات القرآن والسنة المطهرة ، في شأن الموقف الذي يجب اتخاذه من اليهود والنصارى ، بناء على ما يتصفون به من الخلائق التي تبدّت ملامحها معرّاةً دونها لبس أو احتمال ،

ولاتزال الوقائع تؤكد ذلك يوماً بعد يـوم ، الأمر الذى يزيد المؤمن يقيناً على يقين ، بأن هـذا القرآن كلام الله الـذي لا يأتيه الباطـل من بين يديـه ولا من خلفه ، وأن محمداً ﷺ ـ وهو الصادق المصـدوق ـ رسول من عند الله العليم الخبير ، بل هو إمام وخاتم النبيين عليهم الصلاة والسلام .

والكلمات الهاديات التـي نعنيها : هي ما جـاء في الآية الرابعـة بعد المائة من سورة البقرة المشـار إليها .. من قول الله تبارك وتعالى خطـاباً للمؤمنين : ﴿**يأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم**﴾ . تلا ذلك قوله سبحانه : ﴿ **ما يود الذين كفـروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزَّل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾ .

وقبـل النظر في الآيتين الكـريمتين ، وتبُّينِ مـا لهما مـن دلالة على سـاحـة القضية التي نحـوِّم حولها ، وهي أن يكون المسلمون على اليـابسة؛ استشعاراً لوجـودهم الذاتي ، وارتبـاطاً بما جاءهـم عن الله وعـن رسوله عليـه الصلاة والسلام ، بعيداً عن تقليد اليهود والانزلاق فيما انزلقوا فيه من ضلال وعدوان على الحق ... قبل النظرة التي لا يحتمل أكثـر منها المقام ، أود الإشارة إلى أن هاتين الآيتين ، سُبقتا بتعرية واضحة لموقف اليهود من الأنبياء ، وكيف أنهم ناكثون للعهود أبداً ، يعطون العهد اليـوم ، وينقضونه غداً . يكفرون بمحمد خاتـم النبيين ـ والفطـرة السليمة تقضي بـأن يصدقـوا بما جاء بـه ويتبعوه . وكتابهم ـ لو صدقوا ـ يأمرهـم بالإيمان به ، بعد أن أوضح لهم صفاته وما به يعرفونه. وكـان لأجدادهم ذلك الموقف المخزي ، مـن سليمان عليه السلام، حيث اتهموه بالكفر ، وولَّوا ظهورهم للحقيقة ، واستشرفوا للسحر والباطل ، بل اتبعوا ذلك واستبـدلوه بالحق والمنهج الرشيد ، فكـأن الحكمة في السياق

القرآني هنا ، توحي بأن هؤلاء اليهود ـ وهم على هذه الصفة ـ من سبق منهم ومن لحق ــ هم الذين ينهى الكتاب الكريم أمة الإسلام عن تقليدهم ، وسلوك أي سبيل ، قد تجر إلى منهجهم المعادي لله ولرسله وللمؤمنين.

ها نحن أولاء ـ بدءاً من الآية التاسعة والتسعين ـ نقرأ قول الله جل ذكره فيهم وفي عدوانهم على الحق ، ومظاهرتهم الكفر على الإيمان : ﴿ **ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون . أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون . ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتو الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون . واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ، ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون** ﴾.

هكذا يتصدّر هذه الآيات ، ما يدل على أن كفر اليهود بمحمد ﷺ ، كان كفراً في مواجهة الحق الذي له أدلته الواضحة ، وبراهينه اليقينية في نفسه ، وفيما بين أيديهم من كتاب ، أن لو صدقوا مع الله ومع أنفسهم . ﴿ **ولقد أنزلنا إليك آيات بينات** ﴾ والخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام ، أي أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دالات على نبوتك ، وتلك الآيات هي ما حواه كتاب الله الذي أنزله إلى محمد ﷺ من خفايا علوم اليهود ، ومكنون سرائر أخبارهم ، وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل ، والنبأ عما تضمنته كتبهم

التي لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم ، وما حَرَّفه أوائلهم وأواخرهم - كما يقول الإمام الطبري - وبدّلوه من أحكامهم التي كانت في التوراة ، فأطلعها الله في كتابه الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ ، فكان في ذلك من أمره ، الآيات البينات لمن أنصف نفسه ، ولم يدْعه إلى إهلاكها الحسد والبغي .

وبصرف النظر عما بين أيديهم من صفات محمد ﷺ ، يجد العاقل أن الإيمان بما جاء به رسول الله الصلاة والسلام - وقد قام الدليل ووضحت الحجة - هو ما تدعو إليه الفطرة السليمة - كما ذكرت آنفاً - . يقول شيخ المفسرين رحمه الله : (إذ كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل الذي أتى به محمد ﷺ من الآيات البينات التي وصفت ، من غير تعلم من بشر ، ولا أخذ شيء منه عن آدمي) .

ولكن اليهود - وقد رانت على قلوبهم ظلمة الحسد والبغي - ما كانوا يلقون بالاً لواحدةٍ من تلكم العلامات الدالات على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، ولا يعيرون سمعاً لأية كلمة من كلمات الحق . أخرج الإمام الطبري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى ﴿ **ولقد أنزلنا إليك آيات بينات** ﴾ يقول : « فأنت تتلوه عليهم وتخبرهم به غُدوة وعشية ، وبين ذلك ، وأنت عندهم أمي لم تقرأ كتاباً ، وأنت تخبرهم بما في أيديهم على وجهه.

يقول الله :ففي ذلك لهم عبرة وبيان ، وعليهم حجة لو كانوا يعلمون ، ولكن الذي كان منهم ، هو الجحود المطلق : الجحود الذي يكشف عنه ما روي عن ابن عباس أيضاً أنه قال : قال ابن صوريا الفطيوني لرسول الله ﷺ: يامحمد ما جئتنا بشيء نعرفه ، وما أنزل عليك من آية بينة فنتبعك بها ، فأنزل الله عز وجل :﴿**ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون** ﴾.

أجل وما يكفر بتلك الآيات الدالة على صدق نبوة محمد ﷺ وما يجحد بها ، إلا الخارجـون عن دائرة الحق ، التـاركـون لما فـرض الله عليهم ، مـن الإيمان بتلك الآيات البينات .

اللهم اهدنا سواء السبيل ، وأنر بصـائرنا لنكون أشد تمسكاً بالحق الذي نزل بـه كتابك في شـأن أولئك المغضوب عليهـم ، عسى أن نتجاوز الـواقع الأليـم ، إلى واقـع يحمـل بشائر النصر والتمكين . وأنـت ـ جـل ثنـاؤك ـ المحمود على كل حال .



الحديث موصول بما جاء في القرآن الكريـم ،على ساحة الهداية ، في شأن الابتعـاد عـن تقليـد اليهـود في أقـوالهم وأفعـالهم ، والحذر مـن الـوقـوع في أحابيلهـم الماكرة ؛ كالذي نـرى في سورة البقرة بـدءاً من الآية الرابعـة بعد المائة من قول الله جلّ وعز : خطاباً للمؤمنين : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم . ما يودُّ الذين كفروا من أهل الكتـاب ولا المشركين أن ينزَّل عليكـم من خير مـن ربكم والله يختـصُّ برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾ .

ونحن اليوم ، على موعد مـع اصطحاب الآيتين الكريمتين ، لنبين ـ قدر المستطاع ــ موطن الهدايـة في دلالتهما على الطريـق ، التي على المسلمين أن يسلكوها ، كيما يكون لهم التميُّز الواضـح ، بتطويع السلوك لمنهج الإسلام ، وأن لا يقعوا فريسة التقليد الأعمى، والتشبه با لمغضوب عليهم أو الضالين ولو بالكلمة يقولونها ، والمصطلح الذي يخفي وراءه ما يخفي عندهم .

ولعل من الخير أن نبادر إلى القول : بأن الروايات في أسباب النزول ، تدل على أن المؤمنين قـد نهوا عن أن يقـولوا : « راعنـا» في خطـابهم للنبي عليـه الصلاة والسلام .

ولكـن مـا هو السبب الـذي مـن أجله ، نهى الله المؤمنين أن يقـولـوا في خطابهم لصاحـب الرسالة صلـوات الله وسلامه عليه : «راعنـا» ؟ هنالك عدد من الروايـات يأتي في مقدمتها : أن هذه الكلمة كلمـةَ « راعنا» كانت

مصطلحاً لليهـود ، يقولـونها على وجه الاستهزاء والمسبَّـة ، ذلك أنهم كـانوا يختارون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص استهزاءً وسخرية ـ عليهـم لعائن الله ـ فإذا أرادوا أن يقـولوا : اسمـع لنا قـالوا : « راعنـا » ، ويورُّون بالرعـونة والرعونة أمر غير محمـود ، أو يقصدون دلالتها في لغتهم ؛ حيـث قيل. إن المعنـى عندهـم : (اسمـع لا سمعت) ، وكـل أولئك مـن الخبـث المتـأصل في النفـوس ، والحقـد الـذي يـدفعهم، حتـى إلى العبـث بـالألفاظ، واتخاذهـا مصطلحاً بـائراً يروون بـه غليلهم وحقـدهم الـدفين ، فتراهـم يظهـرون أنهم يريـدون المعنـى العـربي ، مبطنين مايقصـدون مـن الاستهزاء والشتـم الذي هو معنى اللفظـة في لسانهم ، مستعينين بالتـورية عما يريدون . من أجـل ذلك جاء النهي الصريح للمؤمنين عـن أن يقولوا : «راعنـا» وأن يقولـوا بدلاً عنهـا في خطـابهم للنبي عليـه الصلاة والسـلام : «انظرنا».

أخرج الطبري بسنـده عن قتادة أنـه قال : ﴿ **يا أيها الذين آمنـوا لا تقولوا راعنا** ﴾ قولٌ كـانت تقـوله اليهـود استهزاءً ، فـزجر الله المؤمنين أن يقـولوا كقولهم . كما أخـرج عن عطيـة : « لا تقولـوا راعنا » قـال : كان أنـاس من اليهود يقولون : أرعنا سمعك ، حتى قالها أناس من المسلمين ، فكره الله لهم ما قـالت اليهـود فقال : ﴿ **يا أيها الـذين آمنـوا لا تقولـوا راعنا** ﴾ كما قالت اليهود.

وفي رواية أخرى عن قتـادة أنه قال في معنى الآية : كانـوا يقولون راعنا سمعك ، فكان اليهود يأتون فيقـولون مثل ذلك مستهزئين ، فقال الله :﴿ **لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا** ﴾ .

ولئن كانت هذه الروايات ، تشير بـأصبع الإتهام إلى اليهود ـ عموماً ـ إن

هنالك رواية تصرح بأن الكلمة المشار إليها كانت كلام يهودي بعينه ، يقال له: رفاعة بن زيد ، كان يكلم النبي ﷺ على وجه السبِّ ، وكان المسلمون أخذوا ذلك عنه بحسب ما يعطيه ظاهر اللفظ ، فجاء التنبيه والزجر ، ونهوا عن قيل تلك الكلمة للنبي ﷺ . هذه الرواية نقع عليها عند شيخ المفسرين رحمه الله منسوبة إلي السدّي حيث روى عنه بسنده أنه قال : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا** ﴾ . كان رجل من اليهود ــ من قبيلة من اليهود ـ يقال لهم : «بنو قينقاع » كان يدعى رفاعة بن زيد بن التابوت ، كان يأتي النبي ﷺ ، فإذا لقيه فكلّمه قال : أرعني سمعك واسمع غير مُسْمَع ، فكان المسلمون يحسبون أن الأنبياء كانت تفخَّم بهذا ، فكان ناس منهم يقولون : اسمع غير مُسمَع كقولك : اسمع غير صاغر وهي التي في النساء: ﴿ **من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليّاً بألسنتهم وطعناً في الدين** ﴾. يقول : إنما يريد بقوله : طعناً في الدين ، ثم تقدم إلى المؤمنين ــ أي أمرهم ــ فقال : ﴿لا تقولوا راعنا﴾.

والناظر في هذه الرواية التي تدل على أن فرداً من اليهود ، كان يفعل تلك المساءة ، مع الروايات الأُخر التي تدل على أنهم ــ بعمومهم ـ كانوا يفعلون ذلك، لا يجدتعارضاً بينها ، لما أن من الممكن أن يكون ذلك الكافر الضِّلِّيل، قد بدأ ذلك ، وتبعه الآخرون ، أو أن له ميزة خاصة في القدرة على إظهار غير ما يبطن ؛ فكان أن أُفرد بالرواية عنه .

ومهما يكن من أمر : فإنه على تعدد المرويات في سبب النزول ، يقودنا النظر في الآيات المتعلقة بذلك ـ ومنها ما جاء في سورة النساء ، كما رأينا من قريب ـ إلى أن فعلة اليهود ـ والله أعلم ـ هي المحور في الموضوع ؛ وهو ما

أشرنا إليـه في صدر هذا الكلام ، مـن أن الروايات في سبب النـزول ، يأتي في مقدمتها : أن كلمة «راعنا» كانـت مصطلحاً سيئاً لليهود في خطابهم للنبي ﷺ ، ينطقون به ، ويورُّون عما في دخيلة نفوسهم من الانتقاص والاستهزاء.

والملاحظ أن قوله تعـالى في سورة البقرة : ﴿ **يا أيها الذين آمنـوا لا تقولوا راعنا وقولـوا انظرنا واسمعوا ، وللكافريـن عذاب أليم** ﴾ يأتي له مـزيد من البيان في سورة النساء ، يوضح بأن اليهود هم أصحاب المصطلح في الكلمة التي نهي المؤمنـون أن يقولـوها في خطـابهم للنبي عليـه الصلاة والسـلام ، والذي نعنيه من سـورة النساء الآية السادسة والأربعون ؛ وقـد ورد أكثرها في رواية السدي مـن قريب ، ذلكم قـول الله تبارك وتعالى : ﴿ **من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه، ويقولون سمعنا وعصينا ، واسمع غير مُسْمَع ، وراعنا ، لياً بألسنتهـم وطعناً في الدين ، ولو أنهم قالـوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً** ﴾ .

فهذه الآيـة الكريمـة واضحة الـدلالة بـالنص الصريـح ، على أن اليهود يصدر عنهم ذميم الفعل والقول ، لأن كلمة «من» هنا في قوله تعالى :﴿ **من الذين هادوا** ﴾ لبيان الجنس كقوله تعالى : ﴿ **فاجتنبوا الشرك من الأوثان** ﴾ ، فهم يحرفـون الكلم عن مـواضعه ؛ يتـأولونه على غير تـأويله ، ويفترون على الله، فيفسرونه بغير مـراده عز وجـل ، فيقولـون للنبي ﷺ : سمعنـا ما قلتـه يامحمد ولا نطيعك فيه ، واسمـع غير مسمع وراعنا؛ أي اسمع لا سمعت ؛ هكذا يقولون، ـ عليهم غضب الله ولعناته ـ يقولون ذلك لياً بألسنتهم وطعناً في الدين ، يعنـي بسبِّهم النبيﷺ ـ فداه أبي وأمي وبعثـه المقام المحمود في الآخرين ـ .

وهكذا تبدو العـلاقة بين ما جاء في سورة البقرة ، و بين مـا جاء في سورة

النساء، والقـرآن يفسِّر بعضه بعضاً ؛ فما جاء مجمـلاً في سورة البقرة بقـوله تعالى :﴿ **لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا**﴾ جاء صريحُ بيانـه في سورة النساء ، وأن اليهود هم الذين كـانوا يلوون ألسنتهم بقالة السوء ـ مـع نفاقهم ـ طعناً في الدين وانتقاصاً من صاحب الـرسالة ، ومزاولةً لحرب شرسة غيرِ معلنة ، ولكن الوحيَ كان لهم بالمرصاد ، فتنزلت الآيات البينات ، تكشف عن خبيئة تلك النفوس ، التي أنهكها المكر وحـب الفساد والإفساد . وحملت الكلمة الهادية نهيَ المؤمنين عن تقليدهم فيما يقولون ، وأن يكونوا متبصرين يقظين ـ حتى في الكلمة ينطقون بها ـ ولذلك مـاله من الآثار الطيبة ، على صعيد ما يراد للأمة من الذاتية المستنيرة ، والالتزام الإيمانيِّ الدقيق .



﴿ ليًا بألسنتهم .. وطعنًا في الدين ﴾

كان من فضل الله على أمة الإسلام ، أن وجهها من بداية الطريق إلى ما به يكون وجودها الذاتي المتميز ، كيما تكون أبداً ـ وهي تنقاد لأحكام دينها القويم وتحتكم إلى المنهج الرباني ـ في موقف العطاء والتأثير ، لا في موقف التقليد والتأثر غير المحمود .

وهذا الوجود المتميز ، ليس جاهلية ولا تعالياً أجوف ، ولكنه ثمرة خيِّرة من ثمرات الهداية التي جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام عن ربه عز وجل ، ودُعوا هم ـ بحكم إيمانهم بها وكونها رسالة للعالمين ـ أن يبلغوها الناس ، فيحملوا إليهم عطاءها ، ويكونوا الأسوة العملية الصالحة ، لمن يدعونهم إليها ، ويحملون إليهم ذلك العطاء .

ومن خلال هذه المقولة الدقيقة : يتبدى كمال الاتساق بينها ، وبين ما درج عليه القرآن الكريم ، كيف أنه كان لا يني ينبه المسلمين على أن يكونوا أبداً على النبع الأصيل ، نوراً وهداية في كتاب ربهم وسنة نبيهم عليه الصلاة والسلام .... وأن يحذروا أيةَ بادرة من بوادر التقليد الأعمى ، لمن ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، أو الغفلة عن أضاليلهم المزخرفة ـ وبخاصة اليهود الذين غضب الله عليهم ، وجعل منهم القردة والخنازير ، والذين بسببٍ من نقضهم المواثيق مع الله ورسوله ، وانحرافهم العمدي عن جادة الحق ، وعبثهم العابث بكلام الله ، حيث تأويله على غير وجهه وتحريفُه عن مواضعه ـ حكم الله عليهم باللعن والطرد من رحمته سبحانه وتعالى .

ومن الآيات التي أضاءت سبيل هذه القضية الكبرى في حياة المسلمين ، وهم يجاهدون في شتى الميادين لبناء المجتمع المسلم .. ما جاء في سورة البقرة من نهي المؤمنين عن أن يقولوا في خطابهم للنبي ﷺ : « راعنا »، لما أن اليهود كانوا ينطقون بها ، ولا يريدون ما يدل عليه ظاهر لفظها ، ولكن يريدون معنى سيئاً يبطنونه ، يحمل الانتقاص والاستهزاء ، وهم يخاطبون من جحدوا نبوته وحقدوا عليه ، محمداً عليه الصلاة والسلام .

وما نعنيه هنا في هذا الإطار هو قول الله تبارك وتعالى في الآية الرابعة بعد المائة من سورة البقرة : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم** ﴾ وما بعدها .

وقد أوردت الروايات التي تدل على أن نهي المؤمنين عن أن يقولوا في خطابهم للنبي عليه الصلاة والسلام : « راعنا » إنما كان بسبب استخدام اليهود للكلمة مصطلحاً سيئاً ، يتصل بدخيلة نفوسهم ، وما تنطوي عليه من الحقد والمكر ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله .

وآكد من هذا في الدلالة على أن اليهود حقاً ،هم الذين كانوا يعمدون إلى تلك التورية بالكلمة ، فيظهرون أنهم يريدون معناها العربي ، مبطنين دلالتها السيئة في لغتهم ، وما به يروون تعطشهم الدائم إلى أذى النبي عليه الصلاة والسلام والمسلمين ، ولو بالكلمة يقولونها ، والمصطلح يستخدمونه على وجه الباطنية ، والخبث ...

آكد من هذا : ما جاء في سورة النساء من التصريح بأنهم هم أصحاب تلك الفعلة الخبيثة ، إذ جاء ذكر ذلك ، ضمن عدد من خصالهم الذميمة التي كشف عنها القرآن الكريم ، كيما يكون المسلمون ، وهم يحملون رسالة

الهداية للناس أجمعين ، ويخوضون معارك التحدي على بينة من أمرهم ويأخذوا حذرهم ذلكم قول الله العليم الخبير :﴿ **من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع ، وراعنا لياً بألسنتهم وطعناً في الدين** ﴾ الآية ..

فأنت ترى أن هذه الخلال الأثيمة جميعها ، قد اجتمعت لهم بلا استثناء ، فهم يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويقولون للنبي عليه الصلاة والسلام ، دونما ذرة من الحياء : سمعنا ما قلته يامحمد ونحن عاصون لا نطيعك فيه ، وهذا أبلغ في كفرهم وعنادهم ، إذ أن السماع هنا سماعُ علم وإدراكٍ ؛ فهم يقولون عن كتاب الله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ، ما جرَّ عليهم في ذلك من الإثم والعقوبة ، كما جاء التصريح بذلك في آيات أخر ؛ منها قوله تعالى خطاباً للمؤمنين بشأن اليهود :

﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمو ن . أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون** ﴾ .

وليس ذلك فحسب : فهم يقولون له صلوات الله وسلامه وعليه : «واسمع غير مسمع» قال ابن عباس : أي اسمع ما نقول لا سمعت ، وهو ما رجحه الإمام الطبري على ما روي عن مجاهد والحسن ، وجنح إليه الحافظ ابن كثير من أن المعنى : « واسمع غير مقبول منك » قال الحافظ ابن كثير : وهذا استهزاء منهم واستهتار، عليهم لعنة الله . ويقولون كذلك : « راعنا» يقولونها لياً بألسنتهم وطعناً في الدين ، وهنا يكشف القرآن خبيئتهم ، فهم يقولونها ، ليّاً بألسنتهم وطعناً في الدين ، إنهم لا يريدون ظاهر الكلمة ، بل يوهمون أنهم يقولون أرعنا سمعك بقولهم « راعنا» والذي يريدونه على

الحقيقة الرعونة أو معنى آخر في لغتهم ، ولهذا قال سبحانه عن هؤلاء المغضوب عليهم ، الذين يريدون بكلامهم خلاف ما يظهرونه : ﴿ ليّاً بألسنتهم وطعناً في الدين ﴾ يعني بسبهم النبي ﷺ.

وهكذا تتبدى العلاقة ـ كما ذكرتُ آنفاً ضمن المنهج الرباني المتكامل ، بين ما جاء في سورة البقرة ، من نهي المؤمنين عن قول « راعنا » ، وبين ما جاء في سورة النساء ، بأن الذين كانوا يلوون ألسنتهم بهذه الكلمة ، هم اليهود ، وأن على المسلمين ــ وقد أراد الله لهم أن يكونوا مصدر العطاء والتأثير على ساحة الهداية والحق ـ أن يكون لهم وجودهم المتميز بالإسلام ، وأن يربؤوا بأنفسهم عن تقليد من يظهرون غير مايبطنون ، لياً بألسنتهم وطعناً في الدين ، أو أن يغفلوا عن تلك الحرب غير المعلنة ، المصحوبةِ بالنفاق والتمويه.

ومما يجب أن يستوقف المؤمن ـ وهو يعمل على الإفادة من هدي الكتاب الكريم ـ أن الآية الكريمة، لم تقتصر على نهي المؤمنين عن أن يقولوا: راعنا ، ولكنها قدمت البديل ، وكان البديل أن يقولوا: « انظرنا» ﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا﴾ أرأيت !! إنه الدرس العظيم على طريق الدعوة أن يقدم البديل الطيب عن الأمر المطلوب تركه ، وإلا كان الضياع وكانت الفوضى . وختمت الآية بقوله تعالى: **﴿ للكافرين عذاب أليم ﴾ .** أي وللكافرين بي وبرسولي ــ والذين يحملهم جحودهم ، على الأقوال والأفعال التي تنمُّ عن مدى الحقد والكراهية للإسلام ونبي الإسلام صلوات الله وسلامه عليه ـ العذاب الشديد الموجع .

ولكم يشفي نفسَ المؤمن ، أن يرى الأمة ، وقد تنبهت من رقادها ، فاتخذت من هذه الآية ونظائرها في كتاب الله ـ والكتاب كله هداية ونور ـ

نبراساً يضيء طـريقها في مواجهـة التحديات التـي يشهرها اليهـود وأعوانهم صباح مساء، أو يخفونها تحت ستار من المخادعة والمكر. إنها إن فعلت ذلك: سلمت لها ـ بعون الله ـ منطلقات المواجهة ، وأمنت ـ بفضله سبحانه ـ مكر الليل والنهار من قبل أعداء تتلون عناوينهـم ، وتتعدد ميادين ما يبيتون من الأذى ــ دونها إخـلال بـاتبــاع سنــن الله في عمارة الأرض ، وبنـاء الحضـارة السليمة القويمة ، امتداداً لما كـانت عليه الحال أيام النصر والتمكين ، والله محيط بالكافرين .



من إعجاز الكتاب الكريم ــ وما أصدق إعجازه وأكمله ـ ما يرى من تكامل المنهج الرباني في تربية الأمة المسلمة ، وتنبيهها على ما فيه سلامة الوجهة في أداء رسالتها، والحذر مما يقوم في وجهها من المعوقات. ومن ذلك : الكشف عن خبيئة يهود أيام التنزيل ، في عصر النبي عليه الصلاة والسلام ، وهم الذين كانوا في ضواحي المدينة وفي خيبر ، يكفرون ، وينافقون إذا لزم الأمر ، ولا يدعون باباً من أبواب الأذى إلا ولجوه ، وقد رأينا من قبل ما هتكت الآيات في سورتي البقرة والنساء ، من مكرهم ، وما كشفت عن حقيقة ما يقصدون في قولهم لرسول الله ﷺ : « راعنا » وكيف أمر المسلمون أن لا يخاطبوا رسولهم بهذه الكلمة ، وأن يقولوا بدلاً عنها « انظرنا ».

والحق أن في هذا التوجيه الرباني الكريم ﴿ **لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا** ﴾ قطعاً لدابر التقليد لأولئك المغضوب عليهم ، قطعاً يمتد إلى كل تقليد يخالف عن الصراط السوي ، و ينير للأمة سبيل التحرك الإيجابي في تقويم البديل الصالح عن المحظور الفاسد ؛ وهكذا نجد ـ مع النهي عن تلك الكلمة غير المرضية ، لما تحمل من عفن فكري أرادته يهود ـ الأمر بما هو بديل طيب عنها .

وإنه لدرس عميق الدلالة في حركة الحياة ، يحسن أن يدرك أبعادَه دعاةُ الإسلام ، ويعملوا له ، وذلك بأن يجدُّوا ويجتهدوا في تقديم البديل الصالح، لما يدعون إلى تركه والتخلي عنه ، سيراً مع أحكام الشريعة الغراء .

وهكذا تكون الكلمات المشرقة بالهداية ـ والقرآن كله نور وهدى ـ نبراساً

في الحذر كل الحذر ، من تقليد اليهود فيما هدفوا من ورائه ، إلى الأذى بالكلمة ومدلولها الخبيث ، وفي الحذر كل الحذر ، من أي لون من ألوان التقليد المتّسم بالانحراف عن سبيل الهدى ، وأن يكون الدعاة ـ وهم يقومون بواجب الدعوة إلى الكلمة الطيبة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » والأخذ بمقتضاها ظاهراً وباطناً ، وإلى تحكيم شريعة الله في شؤون الفرد والمجتمع والأمة ـ .. أن يكونوا ـ وهم يقومون بهذا الواجب المبارك الميمون ـ على وعي تام بأن حركة الحياة التي لا تتوقف ، توجب أن يكونوا على علم بالواقع ومعطيات التاريخ ، وما به قوام الفرد والجماعة على الصعيد الإنساني ... الأمر الذي يوجب ـ ما أمكن ـ حرصاً واعياً متنامياً على تقديم الحلول ،لما يرى أنه مشكلات على طريق التحويل ، الذي يرضى عنه الإسلام النابع من الأصول في كتاب الله وسنة رسوله ، وفهوم أئمة الهدى الذين جمعوا إلى العلم ، أمانة العمل وصدق الوجهة ، في ابتغاء مرضاة الله عز وجل .

وقل مثل ذلك: فيما يجب لمواجهة القضايا الطارئة التي يفرزها التطور العملي في حياة الناس ... والإسلام كفيل بذلك والحمد لله .

وبهذا ينتفي عن هؤلاء الدعاة ، أن يكون عملهم أشبهَ بالدعوة إلى العزلة عن المجتمع ، وعدمِ المتابعة لحركة الحياة .

هذا : ومعنى « انظرنا» وهي الكلمة التي أرادها الله عوضاً للمسلمين عن كلمة « راعنا » وهم يخاطبون رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وهو معلمهم وإمامهم وهاديهم إلى الحق ... معنى « انظرنا » فهِّمنا ، بيِّن لنا يارسول الله وزدنا إيضاحاً لما تقول لنا وتعلمنا . فكأن الله تعالى يقول : وقولوا أيها المؤمنون لنبيكم ﷺ : انظرنا وارقبنا ، نفهم ونتبين ما تقول لنا وتعلمنا . وهذا المعنى المشار إليه أخرجه الطبري في أكثر من رواية عن مجاهد إذ يقول رحمه

الله في تلك الروايـات : (وقولوا انظرنـا : فهّمنا ، بين لنا يامحمـد ..) من هنا رجح شيخ المفسرين قراءة « انظرنا» بوصل الألف على قراءة «أنظرنا» بقطع الألف التي هي بمعنى « أخِّرنا » كما قال الله جل ثناؤه في سورة ص : ﴿ **قال رب أنظرني إلى يوم يبعثون** ﴾ أي أخرني .

وإنما كان هذا الترجيـح لقراءة « انظرنا» لأن أصحـاب رسول الله ﷺ إنما أُمروا بـالدنو مـن رسول الله ﷺ والاستماع منـه ، وإلطافِ الخطاب لـه ـ على عكـس ما فعـل اليهود عليهـم لعائن الله ــ لا بالتـأخر عنـه ، ولا بمسألتـه تأخيرهم عنه .

هـذا: وقد انضـم إلى التـوجيـه القرآني في هـذه القضيـة المتعلقـة بذاتيـة المسلمين ، وأن يكونوا أبداً على المنهج الأقوم ، قولاً وفعلاً ، وحسن أدب مع الرسـول عليه الصلاة والسلام في الخطـاب ، وأيِّ نوع من أنواع التعـامل ، بعيداً عن التقليـد والتشبه باليهود ... انضـم إلى ذلك ، ما ختمت بـه الآية الكريمة ، من دعـوةِ المؤمنين إلى أن يسمعوا ويعوا قوله ، ويحفظوا مـا يوجه إليهم ، كـي يعملوا بـه على الوجـه المرضي ، ومن التـوعدِ للكـافريـن بالله ورسوله ، بالعـذاب الأليم ، ويدخل في ذلك دخولاً أولياً مـن كانت تصدر عنهم تلك الأذية لرسول الله عليه الصلاة والسلام .

هذا: وعلى تعـدُّد القضايـا التي حملتهـا الآية الكـريمة ، فقـد كان مـن إعجاز القرآن : أن ذلك كله جاء في غايـة الوضوح وعمق البيان . لا تقولوا كذا ... ولكن قولوا كـذا ؛ فالذي يعلنه التوجيه الرباني مـن خلال ما دلت عليه الآية ـ والله أعلم ـ ياأيها الذيـن آمنوا لا تقولوا لنبيكم راعنا سمعك، وفرِّغه لنـا ، نفهمك وتفهم عنا ما نقول ، ولا تقعـوا في شرك التقليد لليهود ، بذلك أو بغيره مما أرادوا ... ولكـن قولوا : انتظرنا وترقبنـا ، حتى نفهم عنك

ما تعلِّمنا وتبينُه لنا . واسمعوا منه مـا يقول لكم ، فعوه واحفظوه وافهموه ، ثم أخبرهم سبحانه، أن لمن جحد منهم ومن غيرهم آياتِه وخالف أمرَه ونهيَه، وكذب رسوله ، العـذابَ الموجع في الآخرة . فقال : وللكافريـن بي وبرسولي عذاب أليم . والأليم : الموجع .

على أن هذه العظة البالغة ، لا ينتهي أمـرها و إن بدأت يومذاك ؛ فما أكثر ما يواجه الأمةَ من نفثات المصدورين بعدائها المبطَّن ، ومن دعوات مشبوهة ـ بـاسم التحـديث والتطـوير ــ إلى اتباع منـاهج علمانيـة ضالـة في الفكر والتقويم الحضاري ، وفلسفة التاريخ والاعتقاد !!

والآن .. وبعد الـذي وقفَنا عليـه هذا المعلـمُ الهادي من معـالم الكتاب العزيز ، تجدر الإشارة إلى أن الذي وُجِّه إليه المؤمنون من ترك كلمة «راعنا» والاستعاضة عنهـا بكلمة « انظرنا »، جاء نظيره تنبيهاً لليهـود وتوبيخاً لهم ، كيما يرجعوا ـ أن لو كانوا مؤمنين ـ عن تلك القباحات التي كانوا يرتكبونها من تحريفهم الكلم عن مواضعه ، وسـوء أدبهم البالغ ، مع من أمروا بالإيمان به، وقـام الدليل على صـدق نبوته وهو محمـد عليه الصلاة والسـلام ؛ كل أولئك مـع البيان الواضـح ، أنهم لو أقلعوا عن ذلـك ، وبّدلوا حسنـاً بعد سوء ، كان ذلك خيراً لهم وأقوم . ولكن بسبـب كفرهم وعنادهـم ، لعنهم الله وطردهم من رحمته ، فلا يؤمنون إلا قليلاً .

جاء ذلك في ختام الآية التي نوميء اليهـا من سورة النساء ، ذلكم قوله تعالى : ﴿ **ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً** ﴾.

إنها إشراقـة المنهج: بعـد أن بيّن الله أنهم يحرفون الكلـم عـن مواضعـه ،

ويقولون للرسول ﷺ : لا سمعت ، وراعنا ، يلوون ألسنتهم بذلك مستهزئين بمن رفع الله ذكره وأعلى قدره في العالمين ، طاعنين في الدين الذي جاء به من عند الله ... بعد أن بيَّن الله تعالى ذلك كله من خلائقهم ، قال سبحانه : ﴿**ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم**﴾. أي لو أن هؤلاء اليهود قالوا لنبي الله : سمعنا يامحمد قولك ، وأطعنا أمرك ، وقبلنا ما جئت به من عند الله ، اسمع لنا وانظرنا نفهم عنك ما تقول لنا ، لكان ذلك خيراً لهم عند الله وأقوم . يعني أعدل وأصوب في القول ؛ ولكن الله أخزاهم ، فأقصاهم وأبعدهم من الرشد واتباع الحق بسبب جحودهم وكفرهم القائم على العناد و إنكار الحق ؛ فلا يؤمنون إيماناً نافعاً ،كما قال تعالى : ﴿ **فقليلاً ما يؤمنون**﴾ .

ولقد كان المؤمنون عند الذي وجههم إليه الكتاب العزيز ، فوقفوا عند الذي أرشدتهم إليه الهادية ، وظل اليهود على جحودهم ، وموقفهم المخزي من رسول الله ، والدين الذي جاء به . والمهم اليوم : أن تتضافر الجهود ، من أجل أن تكون قنوات العطاء في حياة الأمة ، متصلة بالهدي الرباني في الكتاب والسنة ، كيما تسقط الأقنعة وتنحسر الغفلة ، ويسود اليقين بأن يهود اليوم هم في ضلالهم وعدائهم لنا ، أحفاد أولئك الذين لعنهم الله بكفرهم ومكرهم ، فأضلهم وأعمى أبصارهم . إن في ذلك لعبرةً لمن يخشى .



يكرهون لكم الخير..
والله يختص برحمته من يشاء

لعل من الخير بمكان ، أن نعاود التذكير ، ونحن ندير الحديث عن اليهود في ضوء القرآن والسنة ؛ كيما نضع أيدينا على مكامن الخطر التي دلّ عليها كتاب الله ، وبينتها السنة المطهرة ، ونفيدَ من إدراك ذلك على صعيد الواقع ، ومواجهة الأحداث اليومية والتحديات التي تصدر عن هؤلاء الأناسي ، ومن لفّ لفَّهم وظاهر باطلهم ، على حق أمتنا التي ما عرفت إلا صدقَ التعامل مع الآخرين ، ولكن الآخرين يقابلونها بالإحسان إساءة ، وبالرحمة عدواناً وتنكيلاً ... أقول :لعل من الخير إن شاء الله ، ونحن ندير الحديث في هذا الإطار ، أن نعاود التذكير بحقيقة ، كشف عنها القرآن في أكثر من موطن، وهي أن موقف الكفار ـ وفي مقدمتهم اليهود والمشركون ـــ هو الموقف الظالم المعادي الذي لا يتغيّر ـ ما أتيحت ظروف العدوان على هذهِ الأمة ـ ولا يتبدل . وليس ذلكَ مقصوراً على ميدان دون آخر ؛ إذ ترى الحرب المعلنة والخفية في الميادين جميعها ، فليأخذ المسلمون حذرهم ، وليُعِدُّوا ما استطاعوا من قوة ، ولا يغتروا بزخرف القول وخداع العناوين .. ولا يركنوا إلى أعدائهم ؛ فدائما وأبداً : وراء الأكمة ما وراءها .

دعاني إلى هذه التقدمة : ما كنا بسبيله في صفحات قريبات ، من الدلالة على موقف من مواقف اليهود المخزية التي كشف عنها القرآن الكريم ، وهو موقف يتعلق بطريقة الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام ؛ فنهي المسلمون النهي القاطع عن أن يقولوا قولتهم ، وأمروا ـ بوضوح ـــ أن

يستخدموا كلمةً بديلة ولهذا ـ كما أشرت من قبل ــ دلالته العميقة في الحفاظ على ذاتية الأمة حتى في الكلمة والاصطلاح ، وأن يكون لها وجودها الأصيل ، فيما تدع وفيما تأخذ، وهو الوجود النابع من أصالة المنهج الرباني ، المستنير بوحي السماء ، ولله الحمد .

هذا : ومن الخير أن نعيد إلى الأذهان ، أن القضية المومى إليها جاءت ، وعليها مسحة الإجمال في سورة البقرة ، وجاء تفصيل ذلك في سورة النساء ـ كما سبق ـ وإذا نظرنا في الآية التالية لقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا** ..﴾ الآية ، وقفنا على تقرير الحقيقة التي ألمحت إليها ، وهي أن اليهود والنصارى والمشركين ، ومن ظاهر باطلَهم ، وسارعلى نهجهم، يقفون ـ أبداً ــ في الخط المعادي لأمة الإسلام ، فهم لا يودون للمسلمين الخير الذي أنزل عليهم من السماء ، ولا يرتضونه ، بل الذي يودونه: الأذى والهلاك والحرمان من كل فضيلة ـ وإن أظهروا خلاف ذلك ــ . ها نحن نقرأ في تلكم الآية وهي الخامسة بعد المائة من السورة المشار إليها : قول الله جلت حكمته : ﴿ **ما يودُّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾ .

هذا إخبار من الله تبارك وتعالى ، عن هذه الحقيقة التي يجيء الحديث عنها ، بعد الذي كشفت عنه الآية السابقة، من صنيع اليهود .. فكأن السياق القرآني ينتقل بنا من الجزئية ، إلى الكلية التي تشتملها ، فما كان يقوله اليهود ـ وهم يخاطبون الرسول ﷺ ـ ، هو جزئية خبيثة تنطوي تحت هذه الكلية الكبرى ، وهي الحقيقة التي أعلنتها هذه الآية التي نسعد بصحبتها . ذلك أن تأويل الكلام فيها : ما يحب الكافرون من أهل الكتاب

ـ يهوداً ونصارى ـ ويدخل فيهم اليهود دخولاً أو لياً لأنهم هم المتحدَث عنهم في الآية السابقة ـ ولا المشركين بالله من عبدة الأوثان ـ أياً كانت هذه الأوثان ـ أن ينزّل عليكم من الخير الذي كان عند الله ، فنزلّه عليكم .. ويمتد ذلك إلى أي نوع من أنواع الخير ، مهما دقّ أو جّل ، كما دلّ عليه التعبير القرآني ﴿ **من خير من ربكم** ﴾ فتمنى المشركون وكفرة أهل الكتاب، أن لا ينزل الله عليكم الفرقان الحكيم ، وما أوحاه إلى محمد ﷺ ، من حكمه وآياته . وإنما أحبت اليهود وأتباعهم من المشركين ذلك ؛ حسداً وبغياً منهم على المؤمنين ، في الوقت الذي لا يعرف المؤمنون في تعاملهم مع الآخرين ، إلا الاستقامة والصدق .

ونقول : حسداً وبغياً منهم على المؤمنين ؛ لأنهم يعلمون ـــ لو كانوا صادقين في دعوى الإيمان ـ أن الله تعالى هو المعطي ، وهو المتفضل الذي يختص برحمته من يشاء . وما دام الأمر كذلك : فموقفهم يحمل ما يحمل من الانحراف عن الإيمان ، وعلى المسلمين أن يحذروا .

وهذا الذي نلمح إليه ، هو ما ختمت به الآية الكريمة حيث قال تعالى ـ بعد أن كشف عن تلك الحقيقة في موقفهم من المسلمين ـ ﴿ **والله يختص برحمته من يشاء والله ذوالفضل العظيم** ﴾. على أن في هذه الكلمات المباركات أيضاً ، تذكيراً للمؤمنين بما تفضل الله به عليهم من الشرع التام الشامل الذي أوحى به لنبيهم ﷺ ، فعليهم أن يشكروا نعمة الله وفضله، بصدق الإيمان واستقامة العمل بما أنزل الله .

وهكذا نرى أن في الآية التي نحوّم حول عطائها الخيِّر ، دلالةً بينة على أن الله تبارك وتعالى ، نهى المؤمنين عن الركون إلى أعدائهم ـــ من اليهود والمشركين وقطيع الموالين لهم ـ والاستماعِ من قولهم ، وقبول شيء مما يأتونهم

به ـ كما يقول الإمـام الطبري ـ على وجه النصيحة لهم ، بإطلاعـه جل ثناؤه إياهم على مـا يستبطنه لهم أهل الكتاب والمشركون ، مـن الضغن والحسد ، وإن أظهروا بألسنتهم خلاف ما هم مستبطنون . ونحن واجدون عند الحافظ ابن كثير رحمه الله ، كلاماً يجمع بين شِقَّي القضيـة ؛ إذ نبه على ما دلّت عليه الآية من العـداء المتأصل عند أعداء الله للمؤمنين ، والنهـي عن التشبه بهم وتقليدهـم ، وأضاف إلى ذلـك، الكشفَ عـن أن الآية تنبـه المؤمنين على ما تفضل الله بـه عليهم من ذلك الشرع الكـامل الذي عليهم أن يعملـوا به ، يقفوا عند حـدوده . قال رحمه الله عند تفسيره لقولـه تعالى : ﴿ **ما يود الذين كفروا من أهـل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم مـن خير من ربكم** ﴾. (يبين بذلك تعالى شدة عداوة الكافـرين من أهل الكتاب والمشركين الذين حذر الله تعـالى من مشـابهتهم للمؤمنين ليقطـع المودة بينهم وبينهـم ، ونبه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل الذي شرعه لنبيهم محمد ﷺ حيث يقـول تعالى : ﴿ **والله يختص برحمته مـن يشاء والله ذوالفضل العظيم** ﴾) .

ومما يُشعر بتكامل المنهج القرآني ، وبيان أن فعل هؤلاء وتبييتَهم ما يبيتون من الأذى ، يتفـق مع هـويتهم الحقيقية ، وهـى أنهم شر البرية : مـا نقرأ في سورة «البينة» من قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية** ﴾.

هذا: ولا يخفى على ذي بصيرة : أن الناظر في كتـاب الله الكريم ، المتدبرَ لآياته ، يـرى ـ والمسلمون يعيشون مـع اليهود وسدنتهم وأعـوانهم واقعاً لا يغبطـون عليه ـــ أن الآيـات التـي تكشف عـن خـلائق اليهـود ، ومظاهـر سلوكهم في كـل ميدان ، وبخاصة في مواجهـة المسلمين ، كأنها تتنزَّل الآن غضة طرية في مواجهة الواقـع ؛ وتلكم ومضةٌ من ومضات الإعجاز ، الأمر

الذي يزيد في يقين المؤمن ، أن القرآن كـلام الحكيم الخبير ، وليس من كلام البشر . هذه واحدة ، أما الثـانية : فهي أن الإدراك الذي نومىء إليـه ، يزيد من عـبء الأمانـة في أن تتخذ أمـة الإسلام مـن الحقيقة القـرآنية ــ أبداً ــ مفتاحاً نيراً مباركـاً لمعالجة قضاياها وحل مشكـلاتها ، وعماد ذلك : صدقُ الإيمان ، والعمل بالإسلام ، والأخذ بأسباب القوة العلمية والعملية من شتى أطرافها، والالتزامُ المخلص بحقيقة أن « الجهاد مـاضٍ إلى يوم القيامة » والله الهادي إلى سواء السبيل .



يَشترُونَ الضَّلَالَة ..
وَيرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيل

الحقيقة التي جرى الإلماح إليها من قريب ، وهي أن العداء المتأصل للمسلمين في نفوس الذين كفروا من أهل الكتاب ـ بخاصة ـ والمشركين وأعداء الله بعامة ، كان من رحمة الله تبارك وتعالى ، أن جاء التنبيه عليها في العديد من المواطن في الكتاب والسنة بكثير من المناسبات، ليكون ذلك من الثوابت التي يجدر با لمسلمين فقهها ، وتؤذي الغفلة عنها أشدّ الإيذاء ، حتى يقوم الدليل على غير ذلك ، في واقعة ما من الوقائع التي نحيط بسببها ومدى دلالتها على المراد .

وقد كانت لنا ـ من قبل ـ وقفة عند الكشف عن هذه الحقيقة في الآية الخامسة بعد المائة من سورة البقرة وهي قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ....** ﴾ **الآية** . حيث جاءت هذه الآية الكريمة ، تقرر الكلية العامة التي تنبعث منها مواقف من جاءت على ذكرهم من أعداء الإسلام ؛ وذلك في أعقاب الآية الرابعة بعد المائة ، التي عرضت لواحدة من مخازي اليهود في خطابهم سيد الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه ، وحضّت المؤمنين أبين الحض ـ نهياً وأمراً ـ على الاحتراز من استخدام هذا اللون من الخطاب .

وقد أشرت إلى أن القرآن في أسلوبه الحكيم المعجز ، بعد أن كشف عن تلك المُخْزية من مخازي المغضوب عليهم ، نبه المؤمنين على أن ذلك يرتبط ارتباطاً تاماً بحقيقةٍ ، ليس من الحكمة في شيء أن يغفل عنها المسلمون ،

وهي عداؤهم المتأصل ، وأنهم لا يحبـون لهم شيئاً من الخير ، حسداً من عند أنفسهم وبغياً ، مـن بعد ما تبين لهم أن الذيـن آمنوا بمحمد ﷺ على الحق الأبلج ، وأنهم هم على الباطل المخـالف لما بَشّر به كتابهم السماوي ، ولكنه العناد وتحريف الكلم عن مواضعه !! .

ويقودنا الحديـث عن هذا الذي نبه القرآن عليـه ، في اثنتين من آي سورة البقرة ، إلى ما جاء في سورة النساء ، بين يدي التفصيل ، لما كان يبطنه اليهود وراء كلمات يقولونها للرسول عليه الصلاة والسلام .

فقبل الآية التي تذكر بعضاً من خصـالهم بالتفصيل ـ ومنها مساءلتهم للنبي ﷺ بما يستبطنـون من معان سيئة يـريدونها من وراء بعـض الألفاظ ـ نجد آيتين كريمتين، تكشفـان عن أن اليهود ، يريـدون للمسلمين أن يضلوا السبيـل، وأنهم الأعـداء ، المتـأصلـةُ فيهـم العـداوةُ للمسلمين ، ولكتـابهم ورسولهم .

أما الآية التي فصّلت الخصال التـي نشير إليها : فهي قول الله جل ثناؤه في السورة المشار إليها سورةِ النساء : ﴿ **من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعـه ويقولون سمعنـا وعصينا واسمع غير مسمـع وراعنا لياً بـألسنتهم وطعناً في الدين ، ولو أنهم قالوا سمعنـا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً** ﴾. وقبل هذه الآية نقرأ قـول الله تعالى بـدءاً من الآيـة الرابعـة والأربعين : ﴿ **ألم تر إلى الـذين أوتـوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويـريدون أن تضلوا السبيل . والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً** ﴾ .

ففـي سورة البقـرة ، ذُكـرت تلكم المُخْـزيـة مـن مخزيات اليهـود ، ونُهي

المسلمون عن التشبه بهم في قيلها ، ثم رُبطت هذه الجزئية بالكلية العامة ، وهي حقيقة أنهم أعداء ألداء ، لا يـريدون شيئاً من الخير للمسلمين ؛ فليس بـدعاً أن يصـدر عنهـم مـا صدر ، ولكـن على المسلمين أن يتنبَّهـوا ، ولا يتشبهوا .

وهنا في سورة النساء : قررت الآية الأولى أن اليهود ـ بما تغلي به صدورهم من الحسـد والبغي ـ يشترون الضلالة ، فيستبـدلون حطـام الدنيـا ، بالخير الذي أنزله الله على رسوله محمد ﷺ ، ويتركون ما جاء به كتابهم من العلم ، عن الأنبيـاء الأولين في صفته عليـه الصلاة والسـلام ، وأن المنهج الحق : أن يؤمنوا بـه ويصدقوه ، ولكنهم جحـدوا وآذوا ، وأصروا على الجحود والأذى ، وفي الـوقت نفسـه ، يـودّون لو يكفـر المؤمنـون بما أنـزل عليهم مـن ربهم ، ويتركون مـا هم عليه من الهدى النـافع : ﴿ **يشترون الضلالـة ويريـدون أن تضلوا السبيل** ﴾.

وفي الآية الثانية : تعرية لعدائهم وتحذير منهم: ﴿ **والله أعلم بأعدائكم** ﴾ أي هو أعلم بهم ، ويحذركم منهم . ﴿ **وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً** ﴾ أي كفى به ولياً لمن لجأ إليه ، ونصيراً لمن استنصره .

ومعنى ذلك : أن على المؤمنين أن يدركوا تلـك الحقيقة ، حقيقةَ أن هؤلاء القوم ضـالون مضلـون ، ويريدون للمسلمين ، أن ينحـرفوا عـن جادة الحق ويضلوا السبيل ، لأنهم إذا تحولـوا عن سبيل الإسلام ـ الذي ألف الله على عقيدته بينهم، وجمع على هدايته قلوبهم ـ ضعفوا ، وتفرقوا ، وذهبت ريحهم. إنهم أعداء ، والله تعالى أعلـم منكم بعدائهم ويحذركـم منهم .. يحذركم أن تركنوا إليهم ، أو أن تأخذوا بشيء من رأيهم ، في دينكـم ـ وما أنتم عليه من الحق..

وعماد الأمر ـ بعد التنبيه على عداوتهم ـ أن يكون المؤمنون مع الله ؛عملاً بكتابه وسنة نبيه صلوات الله عليه وسلم ، وإفادةً من التجارب في علاقة المسلمين باليهود . وغيرهم من أعداء الله ، إنهم إن فعلوا ذلك : كان الله معهم يتولاهم بعنايته ، وينصرهم النصر المبين . أجل : ﴿ **والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً** ﴾.

والحق أن الآية الكريمة تذكّر ـ فيما تذكّر به ـ أن يكون المسلمون على اليقظة التامة ، فيما قد يدخل عليهم من مناهج اليهود ، وأفكار اليهود ، ومن يتولاهم ، ويدور في فلكهم من أعداء الإسلام ، وبخاصة في ميدان الثقافة والمعرفة وتفسير التاريخ ، ناهيك عن الرأي في شيء مما شرع الإسلام. ولكم نحن بحاجة إلى أن نحذر أشد الحذر ، من مخاطر الغزو الفكري الذي يقوده اليهود ، الظاهرون والمقنَّعون ، وأن يكون ذلك على خطٍ سواء ، مع إعداد القوة لخوض المعركة الفاصلة في ميادين الجهاد ..

ولقد كانت عناية الإمام الطبري ، المتوفى سنة عشر وثلاثمائة للهجرة ، عنايةً بالغة في التنبيه على قضية الفكر ، أخذاً من الآية الكريمة، لأن أول خطوة على طريق الضعف والتخلف ، تبدأ من الاقتناع بما يقوله العدو الذي يود لو نقعُ في هوة الضلال والشك في شأن ديننا وتاريخنا ، وما به كنا خير أمة أخرجت للناس .

فعند تفسير قوله تعالى : ﴿ **ويريدون أن تضلوا السبيل** ﴾ كان مما قاله شيخ المفسرين : (وهذا من الله تعالى ذكره تحذير منه عبادَه المؤمنين ، أن يستنصحوا أحداً من أعداء الإسلام في شيء من أمر دينهم ، أو أن يسمعوا شيئاً من طعنهم في الحق). وتبياناً لقوله جل ثناؤه: ﴿ **والله أعلم بأعدائكم** ﴾ قال رحمه الله : (أخبر الله جل ثناؤه عن عداوة هؤلاء اليهود الذين نهى

المؤمنين ، أن يستنصحوهم في دينهم إياهم ، فقال جل ثناؤه : ﴿ **والله أعلم بأعدائكم** ﴾ يعني بذلك تعالى ذكره : والله أعلم منكم بعداوة هؤلاء اليهود لكم أيها المؤمنون . يقول : فانتهوا إلى طاعتي فيما نهيتكم عنه من استنصاحهم في دينكم ، فإني أعلم بما هم عليه لكم من الغش والعداوة والحسد ، وأنهم إنما يبغونكم الغوائل ، ويطلبون أن تضلوا عن محجة الحق فتهلكوا).

اللهم اهدنا سواء السبيل ، وخذ بأيدينا إلى حيث ننتفع في علاقتنا بأعدائنا أعداء الله والإنسان ، بما نبه عليه كتابك الكريم ، ودلت عليه سنة نبيك المصطفى عليه الصلاة والسلام .

وما أكثر الوقائع المتجددة التي تزيد الأمر تأكيداً ووضوحاً ، وتعلن إعلانها في إقامة الحجة على من يغترّون ، أو يتغافلون أو يستخذون !!



وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ

الوقوف عند ثوابت القرآن والسنة ، وما قدمت نصوصهما في شأن أعداء الله من حقائق ، يؤكدها الواقع في القديم والحديث : يقتضي ـ وحال أمتنا مع اليهود ومن يتولَّونهم هي الحال ـ قراءةً متأنية لما كان من تحذير الكتاب العزيز والسنة المطهرة ، من تقليد من ضربت عليهم الذلة، والمسكنة، وباؤوا بغضب من الله ، ومن ترسُّم خطاهم، وهم يجاهرون الله ورسوله والمؤمنين بالعداوة ـ بشتى صورها ـ ويظاهرون الباطل على الحق أبداً .

وهذه القراءة المتأنية الواعية : لابد أن تشمل ، ما كان من توجيه أمة الإسلام ، إلى أن تكون أجيال الأمة، حيال ما ينصب أولئك الأعداء من مكائد ـ يعينهم عليها أقوام آخرون ـ أن تكون مع الكتاب والسنة في كل حال ، وأن تدور مع الحق حيث دار ؛ الأمر الذي يرتفع بها إلى حيث الذاتيةُ والأصالة، وأن تكون في خضم الحياة وصراع الحضارات ، هي الفاعلةَ المؤثرةَ على طريق الهداية والخير ، لا المنفعلةَ المتأثرةَ بما يدعو إليه الآخرون ، بعيداً عن قيمها الأصيلة ، وما كانت به خير أمة أخرجت للناس .

وهل من النباهة ، وحسن المواجهة للواقع الأليم في شيء : الغفلةُ عما أعلنه الكتاب الكريم ، وأكدته الوقائع التي أتت على ذكرها السيرة النبوية، من أن هؤلاء الأناسيَّ ، الظاهر منهم والمستخفي ؛ من الكفرة والمشركين ، لا يرقبون في المسلمين إلاًّ ولاذمة، ولا يبغون لهم إلا الضلالة والخسران المبين . ويسوؤهم أن يتنزل عليهم شيء من الخير ، أو ينالهم ولو قدر يسير من التوفيق ؟ !!

أقـول هذا : والعهـد قـريب بشرف الصحبّة ، لما جـاء في سورتي البقـرة والنساء في قضية (راعنـا وانظرنا) . وأبعادُ ذلك في الحياة ــ حتى يرث الله الأرض ومن عليها ـ لا تخفى على ذي بصيرة .

والأمر الـذي لا يليق إغفـاله ، على صعيد التعـامل ومـواجهة القضـا يا الطارئه يوماً بعد يوم ـ والقوم لهم مطامعُ ليس أقلَّها ابتلاعُ الأرض والناس... الأمر الـذي لا يليق إغفاله، بـل يجب أن يكون أبداً في الحسبان : مـا أعقب الكـلامَ على التنبيه المتحـدَّث عنه، مـن إبـراز حقيقة أن الكفـار من أهـل الكتاب والمشركين ، لا يـودّون أن ينزّل على المسلمين الخير الذي كـان عند الله ، فنزَّله عليهم ، واستنارت حياتهم بالمنهـج الرباني الهادي ، وكانوا أمة الشهادة على النـاس ، بل خير أمة أخرجـت للناس . والذي تمنـاه المشركون وأهل الكفر عمومـاً ـ وفي مقدمتهم اليهود ـ أن لا ينـزل الله على أمة الإسلام الفرقان ، وما أوحاه ربنا جل جلاله إلى محمد ﷺ من حكمه وآياته .

ومن إعجاز القرآن والـدلالة على أنه من عند الله ، وليس مـن كلام النبي الكريم محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، ما كشف عن خبيئة نفوس هؤلاء الأعـداء الحاقديـن ، من أنهم يكـرهون مـا يكرهـون لنا ، ويحبـون ما يحبون، بسبب الحسد الذي يأكل قلوبهم ، والبغي الذي مردوا عليه، وخالط منهم النفوس والعقول ، أن لو كانت لهم في ميزان الآخرة والحق ، عقول ! .

وإذا كان الأمر كذلك : فحريٌّ بالمؤمنين ــ بل واجب عليهم ـ أن لايركنوا إلى أولئك الذين أكـل الحسد قلوبهم ، وجرَّهم البغي إلى المكـر وتمني السوء والضـلالة للمسلمين ؛ وإذا تهاونـوا بهذا الـواجب : سقطـوا في حمأة الخزي وانهزموا أمام المغضوب عليهم الأذلاء ، والضالين التعساء ، وذلك ما أدركه علماؤنا المتبصرون بكتاب الله تعالى ، المدركون لأبعـاد آيِه ، ومدى الترابط بين

آية وأخرى في الموضوع الواحد .

وفي الآيات التي تحمل تلك الحقائق ، وأسعدنا اصطحابها من قريب، أوضحُ الدلالة على أن الله تبارك وتعالى، أراد تنبيه المؤمنين على مكامن الخطر، فنهاهم عن الركون إلى أعدائهم من أهل الكتاب والمشركين ، في أي ميدان من الميادين ، وذلك بإطلاعه ـ جل ثناؤه ـ إياهم على ما يستبطنه اليهود والنصارى وأولياؤهم من المشركين ، من الضغن والحسد وإرادة السوء بأهل الحق ، وإن أظهروا بألسنتهم خلاف ما هم مستبطنون ـ كما جاء في سورة البقرة ـ.

وعلى هذا السنن: وجدنا التأكيد القرآني لهذه الحقيقة في سورة النساء ، ذلكم قول الله جل ثناؤه : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل** ﴾. هناك في سورة البقرة ﴿ **ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم** ﴾. إنهم يودون لو لم يتنزل القرآن على المسلمين . وهنا في سورة النساء ، كشف عن مرحلة أكثر إغراقاً في المكر والأذى ،عمادُها أن اليهود يشترون الضلالة ؛ يختارونها فيكذبون بمحمد ﷺ وبما جاء به من عند الله ، معرضين عن الحق الذي تنزلت به التوراة وهو الدعوة إلى الإيمان به وتصديقه . ويتجاوزون ذلك إلى إرادة الضلالة للمسلمين ، ﴿ **ويريدون أن تضلوا السبيل** ﴾ يريدون أن تتحوّلوا أيها المسلمون لله ، عن قصد الطريق ومحجة الحق ، فتكذبوا بمحمد ﷺ ، وتعكفوا على أمور الجاهلية ، وتكونوا ضُلاّلاً مثلَهم ، فضلا عما يولده تقليدهم والانبهار بهم ، من انحسار المد الإسلامي ، والانتكاس في أوضاع المسلمين . فأنت ترى أنه بهذا الوضوح ، يحذر الله عباده المؤمنين ، أن يستنصحوا أحداً من أعداء الإسلام في شيء من أمر

دينهم ، أو حياتهم على وجه العموم ، أو أن يسمعوا شيئاً من طعنهم في الحق، لأنهم على الشاكلة التي وصفهم الله تعالى بها ، وكشف عن حقيقة ما يبطنون ويكنون من العداوة للإسلام وأهله .

يؤكد ذلك قوله جل شأنه ـ بعد ذلك : ﴿**والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً**﴾ وقد رأينا من قبل ما قرره شيخ المفسرين رحمه الله عند هذه النقطة حيث قال : (**يعني بذلك تعالى ذكره : والله أعلم منكم بعداوة هؤلاء اليهود لكم أيها المؤمنون . يقول : فانتهوا إلى طاعتي فيما نهيتكم عنه من استنصاحهم في دينكم ، فإني أعلم بما هم عليه لكم من الغش والعداوة والحسد ، وأنهم إنما يبغونكم الغوائل ، ويطلبون أن تضلوا عن محجة الحق فتهلكوا**). رحم الله أبا جعفر ، إن اليهود ما داموا على هذه الشاكلة ـ وهذا ما يؤيده الواقع أبداً ... لا يريدون لهذه الأمة الخير ، لا في دينها ، ولا في دنياها ، بل الذي يريدونه ويعملون أبداً على تحقيقه : هو أن تصاب هذه الأمة في دينها ولا تقومَ لها قائمة في العالمين .

وما على المؤمنين، إلا أن يكونوا مع الحق الذي نزل به الكتاب ، يوالون في الله ، ويعادون في الله ، مهما كلف ذلك من أعباء وتضحيات ، إنهم إن فعلوا ذلك صادقين مخلصين ، كان الله معهم بتأييده ونصره على اليهود ، ومن تسّيرهم مطامع اليهود . وما ختمت به الآية واضح في هذا الذي نقول ، فبعد قوله جل ثناؤه :﴿**والله أعلم بأعدائكم**﴾ جاء ختام الآية بقوله سبحانه: ﴿ **وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً** ﴾ .

ويزداد الأمر وضوحاً في اليهود وعدائهم للمسلمين ،على مستوى البيان لطبيعة الخلاف ، وأن المعركة ـ على المدى ـ معركة بين الحق والباطل ، وواجب المسلمين الحتم أن يكونوا على إدراك لهذه الحقيقة ... وأن يسلكوا

في تعاملهم مع أعداء الله والإنسان ، المنهج الذي تقتضيه تلك الحقيقة ..

أجل يزداد الأمر وضوحاً لايدع ريبة لمستريب ، ولا عذراً لمعتذر .. فتقرأ بعد قوله تعالى : .. **﴿ والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً﴾** قوله جل ذكره : **﴿ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا لياً بألسنتهم وطعنا في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾** .

وبعد هذا التفصيل في بعض خلائق اليهود ، من تحريفهم الكلم عن مواضعه ، وافترائهم على الله ، وسوء أدبهم البالغ مع النبي عليه الصلاة والسلام، وأنهم لو سلكوا الصراط السوي ، لكان خيراً لهم ، ولكن بسببٍ من كفرهم ، طردَهم الله من رحمته ، فلا يؤمنون إلا قليلاً .

بعد هذا التفصيل ... نرى أمراً لهم بالإيمان بما نزل على محمد ﷺ ، مصدقاً لما معهم ، كما نرى لوناً من ألوان الوعيد الشديد بالعقوبة القاصمة في الدنيا والآخرة ، إذا لم يؤمنوا ؛ فيصاب الأحفاد بما أصيب به أسلافهم ، ذلكم قول الله جل وعز : **﴿ يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزّلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردَّها على أدبارها ، أو نلعنهم كما لعنّا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً ﴾** .

اللهم هيء لهذه الأمة من أمرها رشداً ، حتى تجعل من تدبُّر كتابك العزيز ، والعملِ بسنة نبيك المصطفى أساساً لمنهجها ، في مواجهة التحديات التي يقف وراءها اليهود وأعوانهم والمفتونون بهم ، وما الله بغافل عما يعمل الظالمون .



ظاهرة الحسد والضغينة ..
الماضي والحاضر

المسلمون اليوم ، مدعوون ــ وقد تداعى عليهم الأعداء من كل حدب وصوب ـ أكثر من أي وقت مضى .. إلى تبيُّن طريقهم التي يجب سلوكها ـ حفاظاً على كيان الأمة ، ورداً للعدوان ـ من خلال الهدي الرباني في كتابه الكريم ، وعلى لسان نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام ، والمعرفة الواعية بالواقع الاقليمي والعالمي . و في اصطحاب للكلمة القرآنية الهادية في شأن ما ينطوي عليه اليهود ـ والكفرة على وجه العموم ـ من ضغن وحقد على المسلمين ، كانت لنا وقفة تذكير عجلى عند آية من سورة البقرة هي قول الله تبارك وتعالى : في الآية الخامسة بعد المائة : ﴿ **ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزّل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾ . وكذلك عند آيات من سورة النساء بدءاً من الآية الرابعة والأربعين وهي قول الله جل شأنه : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل . والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً . من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مُسمع وراعنا ليّاً بألسنتهم وطعناً في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً . ياأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزّلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردّها على أدبارها ، أو نلعنهم كما لعنّا أصحاب السبت وكان أمر الله**

مفعولاً ﴾.

وفي ضوء ذلك : لعل من الخير أن نشير إلى أن ما ينطوى عليه أعداء الله ـ بعامة ـ و اليهود ـ بخاصة ـ من حقد وضغن على المسلمين ، وحسد يقود إلى البغي و إرادة والسوء .. حقيقـة تكمن وراء تصرفاتهم، ومنهج تعـاملهم مع أهل الإيمان . وقد استـأثر تقرير هذه الحقيقة، بقـدر كبير من الاهتمام ـ كما أسلفت ـــ في عدد من آي الكتاب الكـريم ، كما نجده في قدر لا بـأس به ، من سنـة النبي عليه الصـلاة والسلام ، ووقـائع سيرته المطهرة . ومـا رأينا في سورة البقـرة والنساء ، يمثِّل جزءاً مـن المساحة التي ازدانـت بهذا العطاء ، وعلى سبيل المثـال لا الحصر : نقرأ في الآيـة التاسعـة بعد المائة مـن سورة البقـرة أيضـاً ، قول الله تبـاركـت أسماؤه: ﴿**ودَّ كثير مـن أهل الكتـاب لـو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسـداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ، فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير** ﴾ .

ففـي هذه الآيـة ، يحذِّر الله تبارك وتعـالى المسلمين ، من سلـوك طريـق الكفار من أهل الكتاب ، والركون إليهم وموالاتهم والميل إليهم ، ويُعْلمهم شديدَ عداوتهم في الباطن والظاهر ؛ وما هـم مشتملون عليه من الحسد ، من عند أنفسهم للمؤمنين ، ولنبيهم عليه الصلاة والسلام ، وكل هذا : من بعد ما تبين لهم الحق في أمر محمد صلى الله وسلم وبارك عليه ، وأنه رسول إليهم و إلى خلق الله كافـة ، دونما استثناء أو تقييد ، حتى إن تلـك العداوة ، تجعل الكثير منهم يـودون أشد الود ، لو يـردون المؤمنين كفاراً جاحديـن ، بعد أن أكرمهم الله بالإيمان، وأخرجهم بالإسلا م من الظلمات إلى النور .

ومن أجل ذلـك ، لا يجوز سلوك طريقهم ، ولا الركون إليهـم فضلاً عن موالاتهم ، إذ كيـف يُطمأن إلى شيء مما يقـولون ، أو يفعلون في أمـر الإسلام

ونبيه والمؤمنين به ، وهم على هذه الشاكلة من العداوة الظاهرة والباطنة ؟! وما أكثر الوقائع التي تؤكد ذلك ، عظيم التأكيد في التاريخ القديم والحديث !!. والتعبيرُ بالكثير في الآية الكريمة: يدل على الظاهرة التي تطبع مواجهتهم للنبي ﷺ والمسلمين :﴿ **ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً** ﴾ وكأن الود هنا أعمقُ من الإرادة ؛ فهو إرادة في العقل، ورغبة مُلِحَّةٌ من القلب . والمراد بأهل الكتاب هنا اليهود ، فقد جاءت روايات عدة تذكر كعب بن الأشرف ، وتذكر حيي بن أخطب ، وأبا ياسر ابن أخطب ـ وهم من هم في نفوذهم وكلمتهم المسموعة في يهود ـ.

روى الطبري بسنده عن الزهري في قوله تعالى : ﴿ **ود كثير من أهل الكتاب**﴾ هو كعب بن الأشرف ، وروى مثله عن قتادة . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان حيي بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب ، من أشد يهود ، عداءً للعرب ، وحسداً ، إذ خصّهم الله برسوله ﷺ ، وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام بما استطاعا ، فأنزل الله فيهما :﴿ **ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق** ﴾ .. الآية ..

وعلى أية حال : فالأمر ـ كما أسلفت ـ يكمُن في أن هؤلاء الذين جاءت الروايات على ذكرهم من زعماء يهود ، والمطاعين فيهم ، يمثلون الظاهرة ، ظاهرة الحسد والحقد ، التي نشأ عنها ودُّهم لو يردون المؤمنين كفاراً ، يتمرغون في أوحال الضلالة ، بعد أن أنقذهم الله برسالة محمد ﷺ ، وأخذ بأيديهم إلى مرابع الهدى والنور ، ولا شك أن الظاهرة ، يسري أثرها على الآخرين .

ولقد يزيد الأمر وضوحاً في هذا الذي نقول ـ مع التصريح بالكثرة هنا ،

حيث قال تعالى: ﴿ ودَّ كثير من أهـل الكتاب﴾ ـ أن نستـذكر الآيـة التي رأيناها من قبل في سورة البقرة ، وهـي الآية الخامسة بعد المائة ، حيث يقول ربنا جلّ شأنه: ﴿ **ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكـم من خير مـن ربكم والله يختـص بـرحمته مـن يشاء والله ذو الفضـل العظيم** ﴾ . هكذا بكل وضوح : الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ، ما يـودون أن ينـزل القرآن على المسلمين ــ وهـو مصـدر هدايتهـم ، وقـوتهم ، ووجودهم الذاتي الأصيل ؛ وهذا ودٌّ تنفيـه الآية عن هؤلاء جميعاً : ﴿ **ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين** ﴾ . وفي الآية التي نحن بصددها وهي الآية التاسعة بعد المائة ودٌّ تُثْبِتُهُ هذه الآية :﴿ **ودَّ كثير من أهلِ الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً** ﴾فالودُّ المنفي عن الجميع : وُدُّ تَنَزُّلِ القرآن على المسلمين أو شيء منـه، والـود المثبَت للكثير : وُدُّ ارتـداد المسلمين عـن دينهم إلى الكفر والعياذ بالله ، وأحسب أن الربط بين ما نُفي عنهم ، وبين ما أُثبت لهم ، قائم ، فهم لا يودون الخير للمسلمين ـ جملة وتفصيلاً ـ مهما كان شأنه ، ويودون لهم الشر جملة وتفصيلاً على أي وجه ، وفي أية سبيل .

وفي تأكيد لحقيقة ما صرحت به الآية ، بأن الكثير من أهل الكتاب ـ وهم اليهود هنا ــ ودوا لو يردون المسلمين من بعد إيمانهم كفاراً ، وذلـك بدافع الحسد والضغينة ... في تأكيد لهذه الحقيقـة ، أحسن علماؤنا رحمهم الله في ردِّ أن يكون المقصـود بالكثـرة أيَّ شيء غير الكثرة العدديـه . وذكرُ كعـب بن الأشرف وحده ، أو حيي بـن أخطب وأبي ياسر أخيه فحسـب ، لا يعني أن نتحول عن الكثـرة العددية إلى غيرها . وقـد أسلفتُ أن الواحد مـن هؤلاء ، يمثل وجهة الأكثرين ، وَوُدَّ الأكثرين ؛ لأنه صاحب الكلمة المسموعة ، وذو الرأي النافذ في يهود .

فليس لمن يقول ــ مثلاً ـ المراد: كعب بن الأشرف وكفـى : معنى مفهوم ؛

لأن كعب بن الأشرف واحد ، وقد أخبر الله جل ثناؤه أن كثيراً منهم يودون لو يردون المؤمنين كفاراً بعد إيمانهم . والواحد لا يقال له كثير بمعنى الكثرة في العدد ، وقد يقال : لعل المراد بالكثرة كثرة المنزلة والقدر ، وذلك مردود أيضاً ، لأن الله تعالى وصفهم بصفة الجماعة فقال : « لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً ، حسداً .. » فذلك ـ كما يقول أبوجعفر ـ دليلٌ على أنه عنى الكثرة في العدد .

ولقد يظن ظان أن من الممكن أن يكون الكلام ، قد خرج مخرج الخبر عن الجماعة ، والمقصود بالخبر عنه الواحد ، فقال «كثير» وأراد كعب بن الأشرف ـ عليه وعلى أمثاله لعائن الله ـ ولكن ينفي هذا الاحتمال ، أنه لا دليل عليه مطلقاً ، والكلمات الهاديات في الآية الكريمة : جاءت صريحة واضحة فيما أخبر الله عن الكثير من ذلك الود الخبيث ، وليس من دليل يصرف عن ذلك.

والحق ـ كما أسلفنا ـ أن هؤلاء الذين حملت الروايات أسماءهم يمثلون الظاهرة ، في عتوٍّ العداء اليهودي الظاهر والباطن للمسلمين . وهكذا يتقرر بالنص الصريح أن هؤلاء الناس ، لا يرقبون في مؤمن إلاَّ ولا ذمة ، ولا يودون لأمتنا أيَّ لون من ألوان الخير ، فضلاً عن تنزل القرآن ، بل على العكس من ذلك ، يودّون لنا كل شر ومساءة ، ولو كان ذلك على حساب العقيدة ، وما به كرّم الله أمتنا بما أخبر في قرآنه بقوله : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً** ﴾ .

وما دام باعث الحسد والبغي والضغينة موجوداً عند اليهودي ـ بوصفه يهودياً ـ فالمسلم لا يحتاج إلى قياس ، في ترقب كل أذى من هؤلاء الذين أعلمنا الله ما عندهم من عداء ، أو إلى تعليلٍ لما هو واقع اليوم ، من الأذى البالغ والإفك المصطنع . والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .



حسداً من عند أنفسهم ..
من بعد ما تبين لهم الحق

لا يعوز الناظرَ في مقومات المنهج القرآني ، الهادف إلى إعداد المسلم ، وتربيته ، على إدراك ما هو حق وما هو باطل ـ في علاقته بربه ، وعلاقته بالآخرين ـ وضوابط ذلك .. لا يعوزه أن يقع على العديد من النماذج ، التي تؤصل في النفوس مبدأ العدل مع الآخرين وإنصافهم ـ موالين كانوا أو معادين ـ وإعطاء كل ذي حق حقه ، وأن من المخالفة للمنهج في سموه ورفعته ، أن يحمل بُغضُ طائفة من الناس ، على الوقوع في الجور ، وتجاوز الحقوق .

ومن تلك النماذج : ما تشرق : به الآية التاسعة بعد المائة من سورة البقرة التي قررت ـ كما أسلفنا من قبل ـ أن كثيراً من أهل الكتاب ـ وهم اليهود هنا ـ ودوا لو يردون المسلمين بعد إيمانهم كفاراً ، يخسرون الدنيا والآخرة . وعلى كل مساوىء يهود : لم يعمم القرآن في الحكم بل قال : ﴿ **ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً** ﴾ وهذا يدل على أن قلة منهم لاتَوَدُّ ذلك .

وفي عود على بدء : يقع الناظر المتأمل : على واحدة من سمات الإعجاز في كلام الله فيما كشفت عنه الآية ، من كون الباعث على هذا الود السقيم المؤذي هو الحسد ، وأن ذلك لم يقع عن جهالة ، ولكنه واقع من بعد ما تبين لهم الحق ... ﴿ **حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ...** ﴾ الآية.

ونحن هنا ـ في قوله تعالى : ﴿ **حسداً من عند أنفسهم** ﴾ ـ أمام رائعة من

روائع البلاغة القرآنية ، إذ أن الحسد ـ كما هو عند اليهود ــ معروف أنه من داخل النفس ، وله ماله من الدلالة السيئة ، فلو جاء التعبير خلياً عن قوله تعالى : ﴿ من عند أنفسهم ﴾. لأدى غرضه في نسبة الحسد إليهم ، ولكن هذه الكلمات الثلاث ، دلّت على أنه ليس هنالك عامل ، يحمل سمة من سمات الحق ، مؤثرٌ فيما يود اليهود من الضلالة والعماية للمسلمين ، فقوله تعالى : ﴿من عند أنفسهم ﴾ نفى أيَّ احتمال آخر ، في وجود باعث غير الحسد والبغي ، يحمل أولئك المغضوب عليهم على ذلك الود الظالم ، فهم لم يؤمروا بذلك في كتابهم ، ويتجهون هذا الاتجاه ، بعد علمهم بأنهم منهيون عنه؛ وهكذا نرى القرآن يدل ـ بهذا التعبير ـ دلالة قاطعة على أن كثيراً من اليهود ، يودون ما أخبر الله ـ جل ثناؤه ـ عنهم ، أنهم يودونه للمسلمين من الردة عن إيمانهم إلى الكفر ـ وفي ذلك ما فيه من التردي والتحول المهلك ـ حسداً من قبل أنفسهم للمسلمين ، وبغياً عليهم .

لقد حسدوا المسلمين على ما أعطاهم الله من التوفيق ببعثة محمد ﷺ ، وما وهب لهم من الرشاد لدينه والإيمان برسوله ، وما خصَّهم به من أن جعل رسوله المصطفى إليهم رجلاً منهم رؤوفاً بهم رحيماً : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتُّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم** ﴾ . أجل مما حسدوهم عليه ، أن خصهم الله به فجعله منهم ولم يجعله من يهود فيكونوا لهم تبعاً إلى جانب أمور أُخَر ..

من هنا كان واضحاً : أنهم يودّون ما يوُّدون، بإصرار وتعنت ، الأمر الذي يدل على أن ذلك خليقةٌ لهم ، يجب أن يتنبه لها المسلمون ، ولا يغتروا ببعض الظواهر التي قد تسترها ، وأن يُحسب لهذا الأمر حسابُه في منهج التعامل معهم ، لكيلا تختلط الأمور ، ويلتبس الحق بالباطل ، ويؤخذ أهل الإيمان

على غِرَّة ، ويصابون من حيثُ لا يشعرون .

وليس أدلَّ على أن الحسد والبغي خليقة لهم ، في علاقتهم بالأمة المسلمة، من كون ذلك حاصلاً مـن قبل أنفسهم ، كما دل على ذلك صريح القرآن ، وكونهم ـ كما ذكر آنفاً ـ لم يؤمروا بذلك في كتابهم ، قبل التحريف والتبديل ، وأنهم يأتون مـا يأتون من ذلـك ـ لا عن جهل أو غبـاء ـ بل يأتـون به ، على علم منهم بنهي الله إياهم عنه .

هذا ، بالإضافة إلى أنه قد تبين لهم الحق في أمر محمد ﷺ ، وما جاء به من عند ربه ، والملةِ السمحة المباركة التـي دعا إليها ، فأضاء لهم أن ذلك الحق الذي لا مرية فيه .

روى الإمام الطبري عن قتادة : ﴿ من بعد ما تبين لهم الحق ﴾: من بعد ما تبين لهم أن محمداً رسول الله ﷺ ، والإسلام دينُ الله .

كما روى عـن أبي العاليـة : تبين لهم أن محمداً رسـول الله يجدونـه مكتوبـاً عندهم في التوراة والإنجيل .

سبحـان الله .. أي إصرار هـذا الإصرار على الضـلال .. وأيُّ عنـاد هـذا العناد .. بل أي افتراء هذا الافتراء على الحق الذي تجاوزوه ـ وهو جدُّ صريح في كتابهم ـ إلى أن يودوا للمسلمين كفراً بعد إيمان ، وضلالاً بعد هدى ، كل ذلك حسداً من قبل أنفسهم وبغياً على المسلمين !!.

روي عن الربيـع ما روي عن أبي العاليـة من قوله في تفسير قـوله تعالى : ﴿مـن بعد مـا تبين لهم الحق ﴾ : تبين لهم أن محمـداً رســو ل الله ، يجدونـه مكتوبـاً عندهم في التـوراة والإنجيل ، وزاد فيـه : فكفروا به حسـداً وبغياً إذ كان من غيرهم .

وعلى هـذا: فما دام الباعـث حسـدهـم وبغيهم على المسلمين .. فليـس عجيبـاً أن يصـدر عنهـم ــ في كـل زمـان ــ مـا يصـدر مـن تبييـت الشر للمسلمين، والحرصِ على أن ينـالهم الأذى ، في كل ميـدان مـن الميادين .. ورضي الله عن حبر هـذه الأمة عبدالله بن عبـاس رضي الله عنهما إذ يقول : « من بعد ما تبين لهم الحق ، يقول تعالى ذكـره : من بعد ما أضاء لهم الحق ، لم يجهلـوا منه شيئـاً ، ولكن الحسـد حملهم على الجحـد ، فعيَّرهم الله ولامهـم ووبخهم أشد الملامة ، وشرع لنبيه ﷺ وللمؤمنين ، ما هم عليه من التصديق والإيمان والإقرار بما أنزل الله عليهم ، وما أنزل على من قبلهم ، بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم» .

ونسير مع الآيـة الكريمـة ، لنراهـا تختم بقـوله تعـالى : خطابـاً للمؤمنين **﴿فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير﴾**.

يعني ربنا جل جـلاله بذلك ـ والله أعلم ــ تجاوزوا أيها المؤمنون عما كان من أولئك الأعـداء ، من إساءة ورغبة في أذيتكم ، وخطـأ في رأي أشاروا به عليكم في دينكم إرادةَ صدِّكم عنه، وأن تقعـوا في مهواة الرِدَّة بعد إيمانكم ، وعما سلف منهـم من سـوء الأدب مع نبيكم ﷺ ، وكـونوا يقظين لـذلك ، حتى يأتي الله بأمره ، كما نرى في قوله تعالى في سورة آل عمران : **﴿ لتبلونَّ في أموالكم وأنفسكم ولتسمعـنّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكـم ومن الذين أشركوا أذىً كثيراً و إن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾** .

يعني : فعليكم بالعفو والصفح ، حتى يـأتي الله بأمره ، فيحدث لكم من أمره فيما يجب أن تسلكـوه ما يشـاء ، ويقضي فيهم مـا يريـد . وانتهت هـذه المرحلة التـي كان المسلمـون فيها على خير مستـوى من الإحسـان ، والصبر على ما نالهم من الأذى ، والتي صحب العفـوَ والصفحَ فيها يقظةٌ وتنبهٌ إلى

المقدمات والنتائج ، وحقيقةِ ما يكمُن وراء التصرفات ، وأتى الله بأمره وشرع قتال الأعداء والتقرب إلى مرضاته بجهادهم . قال شيخ المفسرين رحمه الله : فقضى فيهم تعالى ذكره وأتى بأمره ، فقال لنبيه ﷺ : ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولايحرمون ما حرّم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتو الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** ﴾. وروى رحمه الله عن الربيع في قوله تعالى : ﴿ **فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره** ﴾ قال: اعفوا عن أهل الكتاب حتى يحدث الله أمراً ، فأحدث الله بعد فقال : ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر** .. إلى ﴿ **وهم صاغرون** ﴾ . كما روى عن السدّي : هذا منسوخ نسخه ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر إلى قوله.. وهم صاغرون** ﴾.

إنها ظاهرة التكامل والكمال في شريعة الإسلام ؛ كان العفو والصفح والصبر على الأذى ، حتى إذا لم يبق في القوس منزع ، والأعداءُ في ضلالهم، ومحاربتِهم للإسلام والمسلمين سادرون ، أتى الله بأمره وشرع القتال ، والله على كل شيء قدير .

وبعد فإن هذا التدرج في التشريع، ورسم المنهج الصحيح للتعامل مع أعداء الله ، مدعاة لأن يقف منه المسلمون اليوم ـ وكل يوم ـ وقفة المتبصر الذي ينتفع بالتشريع وسير الوقائع ، والدلالة على مكامن الخطر ، ومصادر القوة والتمكين . والله المسؤول أن ينير البصائر ، ويجمع القلوب على الخير ، إنه نعم المولى ونعم النصير ؟.



هـذه الحقائق..
أمانة في أعناق المسلمين

الكلمة القرآنية المعطاء ، كنز لا يفنى ، وطريق هداية حاشا لسالكه أن يضلّ . كيف لا ، وهي سلسبيل كتاب لا تنقضي عجائبه ولا يَخْلَقُ على كثرة الرد ، وهو ﴿ كتاب أحكمت آياته ! ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ . وإذا كان الأمر كذلك : فأنى للعطاء الخيِّر أن ينفد ؟ وأنى للهداية الشاملة أن ينحسر رواؤها عن الإنسان ، حين يصدِّق هذا الإنسان ، ويفتح قلبه وعقله لنور الهداية والعطاء ؟ **﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾ ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلامٌ، والبحر يمدُّه من بعده سبعة أبحرٍ ما نفدت كلمات الله إن الله عزيزٌ حكيم﴾.**

أقول هذا ، ونحن على موعدنا في متابعة الرحلة مع الكلمة الهادية الزاخرة بكل ما يسعد المسلمين في الدنيا والآخرة ، ويجنبهم الأذى ، ويصعد بهم إلى مراقي الفلاح والتمكين ، أن لو تدبروا هذا القرآن وعملوا بمقتضاه ، وكانوا مع سنة نبيهم عليه الصلاة والسلام ؛ في القول والعمل والسلوك .

ولقد كان من مظاهر الهداية في الكتاب والسنة ، ما دُلَّ عليه المؤمنون من حقائق ذات علاقة بأعداء الله ورسوله والمؤمنين وما أعتاهم ! . ومن هذه الحقائق أن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ، مغرقون في حسد المسلمين والبغي عليهم ؛ وقد حملهم ذلك على كراهية أن يكون للأمة المحمدية شيء ذو بالٍ من الخير ، فضلاً عن أن يتنزل عليها القرآن الكريم ،

وتنعم برسالة المصطفى عليه الصلاة والسلام. بل إن كثيراً من اليهود ، يودون لو عاد المسلمون من بعد إيمانهم، كفاراً ، يتيهون في مسالك الضلال، ويفقدون مقومات العزة والنصر ، والعياذ بالله .

ولابد من التنبيه على أنه بعد الكشف عن هذه الحقيقة للمسلمين ، كيما يكونوا على بينة من أمرهم ، وكيما يكونوا على حذر واعٍ في تعاملهم مع اليهود والمتهودِّين .. جاءت الآية التي تلي ، لتوجه هؤلاء المسلمين إلى أن المنهج النافع المجدي ، يجب أن يلاحظ فيه أمران أساسيان ؛ أما أولهما : فهو المعرفة الموضوعية بما عليه الأعداء ، دونما اغترار بما قد يظهرون ويزخرفون، ولا غفلةٍ قد تمكنهم من مقاتلنا ، ومن ثمرات ذلك : وجوب إعداد المستطاع من القوة . وأما الثاني : فهو أن يكون أهل الإسلام أبداً ، عند الذي تقتضيه العقيدة ؛ من صدق إيمان وعمل بأحكام الشريعة ، وأن يكون سلوكهم صورة صادقة عن إيمانهم، ووضوح الرؤية عندهم ، وأن لا يكون حظهم من الإسلام الاقتصارَ على الأمر الأول ، وهو الكلام على الأعداء ، مهملين العملَ والأخذ بالأسباب .

فالآية السابقة ـ وهي التاسعة بعد المائة من سورة البقرة ـ دلّت على مكمن الخطر في موقف اليهود د ودخلت إلى الأعماق ، فكشفت عما يودونه من الأذى للمسلمين . وجاءت الآية التي تلتها ، فأمرت المسلمين بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، مبينة لهم أن ما يقدمونه من خير ـ هكذا على الإطلاق ـ يجدون ثمراته الطيبة في الدنيا والآخرة ؛ فهو سبحانه بما يعملون بصير . والآية التي نعني هي قول الله جلت حكمته: ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير**﴾ . فالله تعالى يحث المؤمنين على الاشتغال بما ينفعهم ، وينمي إيمانهم ، وقدرتهم الذاتية، وتعود عليهم عاقبتُه ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ؛ من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وذلك من أسباب النصر في الدنيا ، والسعادة

في الآخرة ، ذلـك لأن إقامـة الصلاة وإيتاء الـزكاة ، نمـوذج مشرق صادق لتطويع السلوك ، كيما يكون الفرد ، والمجتمع في أمة الإسلام على صراط الله الذي إذا أحسنوا سلوكه ، مُكِّن لهم في الأرض وأتاهم نصر الله ، وكانوا أعقلَ من أن ينطلي عليهم مكر يهود ، وأعزَّ من أن يهددوهم في عقر دارهم .. وكان لهم حسن العاقبة يوم الدين .

ولهذا ـ والله أعلم ـ تلا قولَه تعالى : ﴿**وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة**﴾ قوله جل ثناؤه : ﴿ **وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير** ﴾ . أي مهما تعملوا من عمل صالح ، في أيام حياتكم ، فتقدموه ذخراً لأنفسكم ـ على ما للعمل الصالح من معنى شمولي لا يقتصر على العبادة التوقيفية ، بل يمتدرواؤه إلى ما هو أوسـع وأوسع ـ تجدوا آثاره الطيبة عند الله في الدنيا والآخرة ، فهو الكريم المنـان المتفضل ، الذي لا يضيع عنده مثقال ذرة ، وهو مجازٍ كل عامل بعمله ، محسناً كان أو مسيئاً . قال الحافظ ابن كثير: وقوله تعالى : ﴿ **وأقيمو الصلاة وآتـوا الزكاة وما تقدمـوا لأنفسكم من خير تجدوه عنـد الله** ﴾ . يحثهـم تعالى على الاشتغـال بما ينفعهـم ، وتعود عليهـم عاقبتـه يوم القيامة ، مـن إقامة الصـلاة وإيتاء الزكاة ، حتـى يمكِّن لهم الله النصر في الحيـاة الدنيـا ويـوم يقـوم الأشهاد، يـوم لا ينفـع الـذين ظلمـوا معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار .

وانظر إلى قوله تعـالى في ختام الآية : ﴿ **إن الله بما تعملـون بصير** ﴾. هذا الكلام الذي خرج مخرج الخبر المؤكد ، يحمل وعداً ووعيداً وأمراً وزجراً . فإذا كان الله قد جلّى الحقيقة بالنسبة لليهود ، فإن ذلك أمانة في أعناق المسلمين، عليهم أن يـراعوهـا ، ويضعوهـا في حسبانهم . ولا يكفـي أن يعلموهـا، ثم يتجاهلوها ، أو يصحب العلم بها ، انحراف عن الصراط السوي الذي جاء به الإسـلام ؛ فمما ينمي إدراك الحقيقـة وأبعادهـا أكثر وأكثـر ، والقدرةَ على وضعها موضعها مـن الواقع ، وتوجيه حركة التعامـل مع اليهود، وأعداء الله

على وجه العموم ، وأن يكـون المسلمون على استقامة في أمر دينهـم إخلاصاً لله ، وعمـلاً بشريعته ، وأخـذاً بـأسبـاب المَنَعة والتمكين ... أن يُعنـوا أشـد العناية بتطبيق المنهـج الذى كانوا به خير أمة أخـرجت للناس !! والذي إن أخذوا بهديه تجاوزوا الواقـع الأليم ، وكانوا قادرين ـ بـإذن الله ـ على صياغة واقـع جديـد ، ينعمون فيـه بـالقوة والمنعـة ، والقدرة على نشر كلمـة الله في العالمين.

وقوله تعالى : ﴿ **إن الله بما تعملـون بصير** ﴾ ـ بعد الذي مـر من تبصير المسلمين بحقيقة هي من خلال يهود ، وبعد أمرهم بالعمل بأحكام الدين ـ استـوقف شيـخ المفسريـن فقال : (وهـذا خبر من الله جـل ثنـاؤه للذيـن خـاطبهـم بهذه الآيات مـن المؤمنين ، أنهم مهما فعلـوا مـن خير وشر ، سراً وعلانية ، فهـو به بصير ولا يخفى عليه منه شيء ، فيجزيهم بـالإحسان مثله وبالإساءة مثلهـا . ثم قال رحمه الله : (وهذا الكـلام وإن خرج مخرج الخبر ، فإن فيه وعداً ووعيداً وأمراً وزجراً ، وذلك أنه أعلم بالقوم، وأنه بصير بجميع أعمالهم ، ليجدُّوا في طـاعته، إذ كـان ذلك مـدخوراً لهم عنـده حتى يثيبهـم عليه، كما قال: ﴿ **وما تقـدموا لأنفسكم مـن خير تجدوه عند الله** ﴾ وليحذروا معصيته إذ كان مطلعاً على راكبها ، بعد تقدمه إليه فيها بالوعيد عليها ، وما أوعد عليه ربّنا جلَّ ثناؤه فمنهي عنه ، وما وعد عليه فمأمور به).

ترى: هـل نعمل على أن نكون منصفين مـع أنفسنا ومع الحقيقـة ، فننظرَ بشجاعة أدبية إلى ما نحن عليه في واقعنا مع يهود وغير يهود ، ونحاولَ محاولة جادة ، لا ينقصها حسن الأخذ بما وجّه إليه القـرآن الكريم وبيانه من السنة لتحقيق ذلك... إننـا إن فعلنا ذلك ، نكون قـد وضعنا أقدامنا على الطـريق الموصلة إلى ما ينشده المؤمنون المخلصون ، الذين يعون أن‌الله سنناً لا تتخلّف في النصر والتمكين ، وهو ـ جلَّ شأنه ـ ينصر من يشاء وهو العزيز الحكيم .

النهي عن تقليد اليهود وموالاتهم ، والاطمئنان إلى الأخذ عنهم ـ وخاصة في أمور الدين ـ بجانب أن فيه تأكيد ذاتية الأمة المسلمة ، وضرورة ارتباطها بمنابع وجودها الحقيقي في كتاب الله وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام ـ يلاحظ أنه معلَّل أيضاً ـ في نصوص القرآن الكريم والحديث النبوي ـ بأن أولئك المغضوب عليهم ، لا يؤتمنون على شيء من هذا ، لأن صدورهم تغلي بالحقد والحسد للمسلمين ، والبغي عليهم ووِدُّهم أن يكون المسلمون على شر حال ، ذلك من بعد ما تبين لهم الحق . وقد سعدنا بصحبة عدد من الآيات التي كشفت عن هذه الحقيقة ، ونبهت المسلمين عليها، بأسلوب يربط القضية الطارئة بالموضوع الكبير ، دون تحديد بزمن أو فئة من الناس ، وهذا يوحي بأن القضية المطروحة ، والتي تتمثل بحسد اليهود ، وبغيهم وحقدهم على أمة محمد عليه الصلاة والسلام ؛ وأنهم لا يودون لها إلا المساءة في الدين والدنيا ـ مع علمهم بالحق ، وأن مسلكهم هو الباطل بعينه ـ يجب أن تكون في حسبان المسلمين وموضع اهتمامهم في كل عصر ، وعلى أيِّ صعيد من أصعدة التعامل مع الأعداء في حالات السلم والحرب . وأن يكونوا على تنبه تام يباعد عن الغفلة والاغترار بالمظاهر ، وزخرف القول .

والحق أن عناية القرآن وبيانِه من السنة ، كانت واضحة كل الوضوح في هذا ... ولو رحنا نتتبع النصوص ـ التي هي من الصدق وإليه ، والتي أيدها الواقع عبر التاريخ ، بدءاً من عهد النبي عليه الصلاة والسلام ـ لوقعنا على ما يشفي الغُلة ، ولا يدع ريبة لمستريب .

وفي هذه البابـة نقرأ في سورة آل عمران ، وسورة آل عمران ، سـورة مدنية نـزلت والمجتمـع المسلـم يمور بـالحركـة الهادية ، ويـواجـه الأعداء بشتـى عناوينهم وألوانهم وفي مقدمتهم اليهود الذين يتربصون الدوائر ويحاولون ـ في جملة ما يحاولـون ـ أن يضلوا المسلمين ويوقعوهم في المهـالك ، كيما يفقد هؤلاء المسلمـون مقومات الـوجود الـذاتي وعناصر القوة ، ويعـود إليهم ـ أعني اليهود ـــ ما كان لهم من السلطان في المدينة ومـا حولها ، قبل أن تشرقَ شمس الإسلام ، ويـدخلَ هذا الديـن كل بيت في المدينة ...في هـذه البابة نقرأ في هـذه السورة المبـاركة قـول الله جل ذكـره : ﴿ **ودت طائفـة من أهـل الكتاب لو يضلّونكم ومايضلُّون إلا أنفسهم وما يشعرون** ﴾ .

يخبر تبارك وتعـالى في هذه الآية ، عـن حسد اليهود للمـؤمنين ، وبغيهم إياهم الإضلال ، بـأن يصدوهم عن الإسلام ، ويردوهم عنـه إلى ما هم عليه من الكفر ، وبـذلك يقعون في الهلكة والخسران . ومـن بلاغة القرآن ـــ وهو الكتا ب المعجز ـ أن عبَّر بالإضلال هنا ـ والمراد به الإهلاك ـ لما أن الضلال طريق الهلاك بلا ريب ، وفي هذا مزيد من تنبيه المسلمين على أن يكونوا على حـذر من أي خطـوة من خطـوات الضـلال ، لأن ذلك عنـوان السير على طريق النهايـة ؛ ما دام هذا الضلال ـ كماهو معلوم ـ بـريد الهلاك في الدنيا والآخرة .

فاليهود عندما يتمنون إضلال المسلمين ، فالغرض واضح من ذلك ؛ فإذا استجاب المسلمون لدعوة ضالة ـ وما أكثر ما يقف اليهود والصليبيون وراء الدعوات الضـالة ..ـ يكونون قد رضوا لأنفسهم سوء العاقبة ، والتحول عن الأصالة والقوة ، وما فيه مرضاة الله عز وجل ، إلى ما هو خسران مبين في هذه الدار ، ويوم يقوم الناس لرب العا لمين .

قال الإمـام الطبري : والإضلال في هذا الموضع ـــ يعني في قولـه تعالى : ﴿ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم﴾ ـ الإهلاك ، من قول الله عز وجل : ﴿وقالوا أئذا ضللنا في الأرض أئنّا لفي خلق جديد﴾. ومما استشهد به على هذا المعنى قول نابغة بني ذبيان :

فآبَ مضِلُّوه بعَينٍ جِليَّةٍ وغودرَ بالجولانِ حَزْمٌ ونائلُ

يعني فآب مهلكوه .

ثم أخبر تعالى أن وبال محاولتهم صدَّ المسلمين عن دينهم ، إنما يعود على أنفسهم وهم لا يشعرون ، ذلكم قوله تعالى : ﴿ وما يُضِلُّون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ .

أجـل : إنهم يهلكـــون أنفسهـم ، وأتبـاعهـــم وأشيـاعهـــم على ملتهـم ومسالكهـم، وإنما أهلكوا أنفسهـم وأتباعهـم بما حاولـوا من ذلـك ، لأنهم استوجبوا بمحاولاتهم الآثمة سخط الله ، واستحقـوا غضبه ولعنته ، لكفرهم بـالله ونقضهم الميثـاق الـذي أخذ عليهـم في كتـابهم ،في اتباع محمـد ﷺ وتصديقه والإقرار بنبوته .

على أنهم لم يقفوا عند هذا الحد من الكفر ونقض الميثاق ، بل حاولوا صدَّ المسلمين عن دينهم الحق ، إذ لا يهدأ لهم بـال ـ وهم يتمرغـون بلعنات الله وغضبه ـ حتى يبلغوا الغاية لـو استطاعوا ، في تحويل المسلمين عن طريق الإيمان والعزة والتمكين ، إلى طريق الكفر والذِلَّة والهوان .

وفي قوله تعالى في ختام الآية : ﴿ وما يشعرون﴾ إخبار منه جل ثناؤه ، أن أولئك اليهـود يفعلون ما يفعلـون ؛ من محاولة صـد المؤمنين عن الهدى ، إلى الضلالـة والردى ، على عمايـة ، منهم وجهـلٍ بما الله مُحِلٌّ بهم من عقـوبته ،

ومدّخَرٌ لهم من أليم عذابه ، وشديد أَخْذِهِ ؛ فأَخْذُه ـ سبحانه ـ أليم شديد .

فإذا وعى المسلمـون هذه الحقيقة ، وعملوا بمقتضاها ، وكـانوا على يقظة من أمـرهـم ، فـاستمسكوا بـالحق الذي نـزل به الكتـاب ، كان الله معهـم ، فـوقاهـم شر اليهود ومـن هـم على سَنَن اليهـود، وعادت محاولات الأعـداء الظالمة عليهم ، ورُدّت سهامهم إلى نحورهم . ﴿ **والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ .

يلبسون الحق بالباطل ..
ويكتمون الحق وهم يعلمون

حططنا الرحال من قريب ، ونحن نعرض لبعض من توجيهات الكتاب العزيز في شأن المتربصين بنا الدوائر ، وما يجب من أخذ الحِذْر وعدم الاطمئنان إلى ما يصدر عنهم ، وبخاصة إذا كان ذلك في أمر من أمور الدين، لأنهم ينطلقون في تعاملهم مع المسلمين ، من الرغبة الجامحة في الأذى، وهي رغبة مصحوبة بالحسد من عند أنفسهم، والبغي على عباد الله المؤمنين .

أقول : حططنا الرحال ، ونحن نعرض لبعض من ذلك ، عند قول الله تبارك وتعالى في الآية التاسعة والستين من سورة آل عمران : ﴿ **ودّت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون**﴾ .

وغير خافٍ ، أن الآية تقفنا على حقيقة ما ودّ أولئك الحاقدون ، وهم طائفة من اليهود ، أن يوقعوا المسلمين في الضلال ، فيكون ذلك طريقهم إلى الهلكة والخسران المبين . وقد فسَّرت ـ يضلونكم ـ على أنها بمعنى ـ يهلكونكم ـ لأن الإضلال جاء بمعنى الإهلاك في القرآن الكريم ، كما في قوله تعالى : ﴿ **وقالوا أئذا ضللنا في الأرض أئنّا لفي خلق جديد**﴾ . ولما أن الضلال ـ كما أسلفنا ـ طريق الهلاك ، لأن المسلمين إذا تحوّلوا عن طريق الهداية ، الذي هو قوام عزهم وتمكينهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة : فمعنى ذلك، أنهم رضوا بما هو على النقيض من ثمرات الهداية، فلا عزَّ ولا تمكين، ولا فوز برضوان الله ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، وأيُّ هلاك كهذا الهلاك

المدمّر الذين لا يُبقي ولا يَذَرُ !!

على أن الآية الكريمة ، نبهت على أن هؤلاء اليهـود ـ وهم يودون إضلال المسلمين وإهلاكهم ـ ما يضلّون ويهلكون إلا أنفسهم وأتباعهم وأعوانهم . وفي الوقت نفسه ، لا يشعرون ؛ لا يدرون ولا يعلمون أنهم ممكور بهم ، وأنهم فيما يصنعون ويحاولـون من الأذية ، واقعـون في حمأة العماية عما هـو مُعَدٌّ لهم من العقاب الشـديد والعذاب الأليم ، ناهيك عـن افتضاحهم على رؤوس الخلائق ، في الدنيا ويوم الدين .

ثم عادت بنا الآيـات الكريمات، لتربط الحقيقة المشار إليهـا بجذورها ، على صعيد العقيدة ، فاليهود ضلُّـوا ، ومن بعدُ ، ودُّوا لو يُضلّون المسلمين ؛ وإذن فالـرغبة في إضـلال المسلمين وتسييرهم في طـريق الهلاك والـدمار ، مـرتبطة أيّما ارتبـاط بظُلَم الضـلالة التـي تـرين على قلـوبهم والعياذ بـالله. ولـذلك جـاءت الآيـة التي تلي ، تحمـل صورة واضحـة لـلإنكار عليهـم ، وتوبيخهم على كفرهم بآيات الله ، وهـم عالمون بصدقها ، وموقنون في قرارة نفوسهـم ، بأن مـا يدعـو إليه محمـدﷺ هو الحق .. ولكنـه الحسد والبغـي والانحراف المتـأصل في النفـوس ؛ ذلكم قـول الله تبارك وتعـالى : ﴿ **ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون** ﴾ .

هذا واحـد من الجذور التـي ينتمـي إليهـا طغيانهم ، وَوُدُّ هـم لـو يسير المسلمون في الطـريق الضـالة التـي توردهـم موارد الهلكـة والردى ؛ يـاأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، لم تكفرون ، لم تجحدون بها في كتاب الله الذي أنزله إليكـم على ألْسن أنبيائه من آيـه وأدلته ، وأنتم تشهدون أنـه حق من عند ربكم ؟ ومن ذلك ما جاء في صفة محمد ﷺ ، وأحقية ما يوحى إليه من دين الإسـلام .قال قتـادة رحمه الله ﴿ **ياأهـل الكتاب لم تكفرون بـآيات الله**

وأنتم تشهدون ﴾ يقول : تشهدون أن نعت محمد نبي الله ﷺ في كتابكم ، ثم تكفرون به وتنكرونه ولا تؤمنون به ، وأنتم تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل **﴿ النبيِّ الأميِّ الذي يؤمن بالله وكلماته ﴾** .

كما روى أبو جعفر عن الربيع في معنى الآية أيضاً : تشهدون أن نعت محمد في كتابكم ، ثم تكفرون به ولا تؤمنون به ، وأنتم تجدونه عندكم في التوراة والإنجيل « النبي الأمي » .

والذي روي عن ابن جريج : أن المعنى : يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون أن الدين عند الله الإسلام ، ليس لله دين غيره .

ونتابع مع الكلمات الهاديات ، كشفها عن جذور الرغبة في الإضلال عند اليهود ، وأن ذلك امتداد لعدوانهم على الحق ، مع علمهم بأنه الحق ، فكأنهم ـ لضلالهم المتشعب الملقي بجرانه على النفوس والقلوب ـ لا يريدون لأحد أن يهتدي ، بل يودّون لو ارتد المسلمون عن دينهم ، ودارت عليهم دائرة السَّوء في الدنيا والآخرة ... نتابع الكشف عن تلك الجذور الضاربة في العقول والقلوب ، لنرى أن قول الله تعالى : **﴿ ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ﴾** يتلوه قوله جل ثناؤه : **﴿ ياأهل الكتاب لمَ تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ﴾** .

إنها لمحة من لمحات الإعجاز في هذا الكتاب الكريم ... هنالك خبث ومكر ـ على الصعيد الفكري ـ يصحبان الكفر بالحق ، مع العلم أنه الحق ـ كما نصَّت عليه كتبهم التي يزعمون الإيمان بها ـ وكان من ثمرة الخبث والمكر، لَبْسُ الحق بالباطل ، خلطٌ بين الحق والباطل قد يؤدي ـ على وهمهم ـ إلى تمييع القضية الأولى ، قضية الإيمان بمحمد ﷺ وبما أوحي إليه .. إلى جانب ما يمكن أن يدخل على بعض البسطاء الذين تعوزهم المعرفة

الأصيلـة ، من أن الحق قـد يكون هنـا ، وقد يكـون هناك . فـأهل الكتـاب يلبسون الحق بالبـاطل ، يخلطون الإسلام باليهوديـة والنصرانية ، ويسلكون سبيل النفاق، مع أن الإسلام هو الـدين الذي ارتضاه الله لعباده ، ولا يقبل ديناً غيره ، ويكتمون الحق .. يكتمون شأن محمد ﷺ والإسلام ، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل .

هكذا تضع الآية الكريمة يد الإنسان ـ عبر العصور ـ على هذه الحقيقة **﴿ياأهـل الكتاب لم تلبسون الحق بالبـاطل وتكتمون الحق وأنتـم تعلمون﴾** ويبدو أن القـوم سلكوا طريقـاً تتواءم مـع الإنكار والجحود ، وربما كـانت شرَكاً يقع فيه المسلمون ، فيتحولون عن دينهم وتحلُّ بهم القارعة ؛ ذلك أنهم ــ كما أسلفنـا من قبـل ــ لجؤوا إلى النفـاق فبـدؤوا يظهـرون بألسنتهـم مـن التصديق بما جـاء به محمد ﷺ ،غير الذي تنطوي عليه قلـوبهم من الجحود والكفران ، ووراء الأكمة في ذلك ما وراءهـا. فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : قال عبدالله بن الصيِّف وعدي بن زيد والحارث بن عوف بعضهم لبعض : تعـالوا نؤمن بما أنـزل على محمد وأصحابه غُـدوة ونكفر به عشية ، حتى نلْبس عليهم دينهم ، لعلهـم يصنعون كما نصنع ، فيرجعوا عن دينهم فأنزل الله عـزوجل فيهم : **﴿ ياأهل الكتاب لمَ تلبسـون الحق بالباطل ..﴾ إلى قوله تعالى ﴿ والله سميع عليم ﴾** .

ويبدو أن حـركة أعـداء الله ، كانت دائبـة على الصعيد الفكـري ، وكان لبس الحق بالباطل واحـدةً من دعائمها . **وليت أنـّا نتدبر مـا جاء في كتابنا حق التـدبر ؛ إذن لأصبحنا أكثـر وعياً لخلائق اليهـود ومن يظاهـر اليهود ، ولكان في مقدورنا تجاوز الواقع الذي لا نغبط عليه ، إلى واقع نكون أصحاب الكلمة فيه ويـومئذ تستعلن الحقيقة مـن جديد ، وينحسر ما كـان من لبس الحق بالباطل ، بعد أن يعلم الله الذين جاهدوا ويعلم الصابرين .**

لاينكر منصف أن القراءة المتـدبرة الواعية للقرآن الكريـم ، وما تنزّل من آيه في شـأن من همُّهم الصَّدُّ عـن سبيل الله ، ومناصبتُه أهـل الحق العداءَ في شتى الميادين .. لانكرانَ في أن ذلك كفيل ـ بعون الله ـ إذا خلصت النيات، وصدقت العزائم ، أن يخرج بالمسلمين ، إلى حيث يمسكون بعاتق الميزان في معـركة التحـديات التـي يواجهـون على سـاحتها اليهـود وأعوانَ اليهـود ، ويملكون القدرة على أن يقولوا ويفعلوا ، ويأخذوا بأسباب القوة والتمكين بذاتيةٍ وأصالـةٍ ، بتميُّزٍ يعيدهم إلى ما كانوا عليه مـن القيادة والسيادة ، يوم كانوا منقادين لكلمة الإسلام ، وكانت مرضاةُ الله ورسوله أعز ما يطلبون .

أقول هذا ، وأنا بسبيل أن أعيد إلى الذاكرة ، ما كشفت عنه آيتان كريمتان في سورة آل عمران هما الآية السبعون والآيـة الحادية والسبعون، من جذور يرتبـط بها ما يوّدُّه اليهـود ـ وأهل الكتاب بعـامة ـ مـن أذى المسلمين ، ومن ذلك أن يضلّوا فيهلكوا .

والآيتان المعنيتان هما قول الله تبارك وتعالى : ﴿**ياأهل الكتاب لم تكفرون بـآيات الله وأنتـم تشهدون**﴾ ﴿ **يـا أهل الكتـاب لم تلبسون الحق بـالباطـل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون** ﴾ وقد سبق ذلك قول الله جل ثناؤه : ﴿ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما **يُضلون إلا أنفسهم وما يشعرون**﴾.

فهؤلاء الـذين ودّوا لـو يضلون المسلمين ، يـزينون لهم طـريق البـاطل فيتحـولـون عـن الحق فيهلكـوا ، وأخبر الله أنهم مـا يضلـون إلا أنفسهـم وأتباعهم، وما يشعرون بما هو معدّ لهم من العذاب الأليم، والخسران المبين .

هؤلاء الضالـون المضلون ، هم كافرون بمحمد ﷺ ومـا أنزل على محمد ، وكفرهم هذا : ليـس عن جهل أو غباء ، ولكنه كفر عنـادٍ متأصل في النفس وصورة عن الحسد والبغي على المسلمين .

فهم يكفرون بآيات الله مع علمهم بأن كتبهم قد أثبتت أوصاف محمد ﷺ ودعت إلى الإيمان به ، وبما جاء به ، على شكل لا يقبل الاحتمال ... كان لهم هذا الموقـف وهم يتعالَون على النـاس بأنهم أهل كتاب وأنهم يعلمـون ما لا يعلم غيرهم ، وأن لهم الأفضلية في ميدان الفكر ، وفلسفة التاريخ ، والقدرة على معرفة الحق من الباطل . ﴿ **يا أهل الكتاب لم تكفـرون بآيات الله وأنتم تشهدون** ﴾ .

وجاءت الآية التالية ـ كما مر بنا قبل ـ لتضع أيدينا على أنهم يلبسون الحق بالباطل ، ويخلِطـون الإسلام باليهودية والنصرانية ، وتـرى النفاق اليهودي وسيلة من وسائل الإضلال والتغرير بـالآخرين . وكلمات عبدالله بن عباس رضي الله عنهما حبر هـذه الأمة تـؤذن ــ كما روى الطبري ــ بأن عبـدالله بـن الصيِّف وعديّ بن زيد والحارث بن عوف قال بعضهم لبعض : تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة ونكفر به عشية حتى نلْبس عليهم دينهم، لعلهم يصنعـون كما نصنع فيرجعوا عن دينهـم ، فأنزل الله عز وجـل فيهم: ﴿**يا أهل الكتـاب لم تلبسون الحق بالباطل** ...﴾ إلى قولـه﴿ **سميع عليم** ﴾ والآيات التي عناها ابن عباس هي قول الله تعالى : ﴿ **وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بـالذي أنزل على الذيـن آمنوا وجه النهار واكفـروا آخره لعلهم يرجعون . ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ، قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتُم أو يحاجُّـوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يـؤتيه من يشاء والله واسع عليم**﴾ .

والحق أن هذه الواقعة ـ كما يخبر عنها هذا العالم الكبير من علماء الصحابة وأحد العبادلة الأربعة ـ ذات دلالـة واضحة على النهج الذي حاول اليهود سلوكـه مرحلةبعد مـرحلة ، بغية المضـارّة بالمسـلمين وتحويلهم ـ لـو أمكن ذلك ـــ عن طـريق الإيمان والقـوة والهدى ، إلى طريـق الضلالـة والضعف والـردى . فـإذا كان قـولـه تعـالى: ﴿ ودت طـائفـة من أهـل الكتـاب لـو يضلونكم﴾ الآية، قد كشفت عما يودُّ هؤلاء الكفرة الفجرة للمسلمين ، فإن الواقعة التي نومىء إليها والتي نـزلت بشأنها الآيات المشار إليها ـ كما دلت الآية هذه ـ تكشف عن تجربـة عملية ، أراد اليهود أن يقوموا بها لعلها تجدي في إضلال المسلمين ، تلـك التجربة ، هـي سلوك طريـق النفاق ، كما تمالأ على ذلك أولئك النفرمن اليهود عبـدالله بن الصيِّف وعدي بن زيد والحارث ابن عـوف ، حيث تداعوا ـــ كما سبق ـ إلى الإيمان بما أنزل على الـرسول ﷺ غُدوة والكفر به عشية ، حتى يلبسوا على المسلمين دينهم ، لعلهم يقعون في شرك التقليـد الأعمى ، فيصنعـوا كما صنعـوا هـم ، فيرجعوا عـن إيمانهم بالإسلام وتصديقهم بمحمد عليه الصلاة والسلام . فنزلت الآيات تفضح صنيعهـم، وتعرِّي نفـاقهم ، الـذي قام على لبس الحق بالبـاطل ، ولَبْـسِ الإسلام باليهودية والنصرانية ، والظهور بالمظهر المخالف لما يبطنون **﴿يا أهل الكتـاب لم تلبسون الحق بـالبـاطـل وتكتمون الحق وأنتـم تعلمـون﴾** إنهم يلبسون الحق بـالباطل ويكتمـون الحق وهم على علم به ، وقنـاعة بالـدليل الذي قام عليه .

وأنت تلاحظ ـ بجانب ما رأينا عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ أن قتادة ـ فيما روي عنـه ـــ يقول في معنـى الآيـة : (لم تلبسـون اليهوديـة والنصرانيـة بالإسلام وقـد علمتم أن دين الله الذي لا يقبـل غيره : الإسلام ، ولا يجزي

إلا به ؟) وقد روي نحـو ذلك عن الربيع وابن جـريج رحمهم الله أجمعين .
على أنـه قـد روي عـن ابـن زيـد في قـول الله عـز وج : ﴿ لم تلبسـون الحق بالباطل﴾ قال : الحق : التـوراة التي أنـزل الله على موسـى والباطـل : الذي كتبوه بأيـديهم. ويمكن القول بأن هذا كلَّـه قد كان من اليهـود ، فقد كتبوا بأيديهم كلاماً من عند أنفسهم ، فـزعموا أنه التوراة أو من التوراة ، وخلطوا بين الحق والباطل أيضاً ، حيث لبسوا هم وأهل الكتاب الآخرون: اليهودية والنصرانية ، بالإسلام .

أما الحق الذي كتموه : فهو ما في كتبهم من نعت محمد ﷺ ومبعثه ونبوته وهم يعلمون أن ما يكتمونه هو الحق ، وأنـه من عند الله . قال قتادة : قوله : ﴿ وتكتمـون الحق وأنتم تعلمـون ﴾ كتموا شـأن محمد وهم يجدونه مكتـوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وروي مثل ذلك عن الربيـع . وقال ابن جريج : ﴿ تكتمون الحق ﴾ الإسلام وأمر محمد ﷺ وأنتم تعلمون أن محمداً رسول الله وأن الدين هو الإسلام .

تلكم هي البـدايات . وجاءت الوقائع ــ عبر التاريخ ـ لتؤكـدها أوضح تأكيد. ومطلوب مـن الأمة الإسلامية اليوم ، أن لا تتخذ هـذه الحقائق ـ وهي تعاني ما تعاني من ويلات يهود وأعوانهم ـ وراءهـا ظهرياً . وبذلك تدفع عن نفسهـا وعن الإنسـانيـة وبال شر مستطير ، لا يخفـى على منصـف من بنـي الإنسان . ولله الأمر من قبل ومن بعد وهو حسبنا ونعم الوكيل .

آمنوا وجه النهار .. واكفروا آخره لعلهم يرجعون

مرَّ بنا ـ ونحن نـرصد الجذور التي يرتبـط بها ما يوده اليهود مـن إضلال المسلمين ، وجعلهم يتجهون إلى حيث الهلكة المدمِّرة في الدنيا والآخرة ـ ما روى الإمام الطبري عـن عبدالله بـن عباس رضي الله عنهما أنـه قال : قـال عبدا لله بـن الصيِّف وعدي بن زيـد ، والحارث بن عوف بعضهـم لبعض ، تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابـه غدوةً ونكفر به عشية ، حتى نلبس عليهم دينهم ، لعلهم يصنعون كما نصنع ، فيرجعوا عن دينهم فأنزل الله عز وجل فيهم :﴿ **يا أهل الكتاب لم تلبسـون الحق بالباطل** ﴾ إلى قوله : ﴿ **والله واسع عليم**﴾ .

هكذاائتمـر هؤلاء الرهط مـن اليهود فيما بينهم ، وبيتوا أن يسلكـوا هذا المسلك ، ليكـون جزءاً مـن منهج ، قوامُـه : المكر والانحـراف عن الحق إلى الباطل ، لعلهم يصيبون من المسلمين مقتلاً ، فيضلوهم عن سواء السبيل ؛ وذلك بارتدادهم عن الدين والعياذ بالله .

والحق أن هـذا البيـان في كتـاب الله لـواحدٍ مـن الأسلحـة التـي حـاول استخدامَهـا أعداؤهـم ، نعمةٌ كبرى يقـدرها حـق قدرهـا المدركون لأبعـاد الصراع ، والأغراضِ القريبة والبعيدة التي يحلم اليهود بتحقيقها ، ابتداءً من العمل على زعزعة القاعدة الأولى ، في بناء الإسلام العظيم .

وهو في الوقـت نفسه ، حجةٌ على الأمة ، لا عذر لها إن هي أعـرضت عن

دلالته العميقة ، وخاضت كالذي خاضوا ، ناسية أو متناسية ، أن الكلام كلام رب العالمين الذي يعلم سر الأعداء ونجواهم ـ وكتابُه الكريم ، وحيُه إلى نبيه عليه الصلاة والسلام ؛ فهو الحق كله ، وهو الهداية كلها .

من أجل هذا : يمكن القول في شأن هذه الواقعة ، التي تقوم على تبييت صورة من المكر قوامها النفاق ، لتحويل المسلمين أو بعضهم ـ إن أمكن ـ عن مكامن الإيمان والقوة ، إلى الزعزعة والضياع ، بعد أن تبين علم اليهود أن المسلمين على حق ، وأن أعداء الله يتعمدون لبس الحق بالباطل وكتمان الحق وهم يعلمون ... يمكن القول : بأن معالجة هذه الواقعة وأمثالها في الكتاب الكريم .. من الثوابت التي لا خيار للمسلم ، في أن يضعها موضع الانتفاع ، أولا يضعها كذلك ، والإعراض عن هذه المحجة: اختيارُ التي هي أسوأ سبيلاً وأشنع عقبى .

وواقع المسلمين اليوم ـ نتيجةَ الإعراض عن هدي الكتاب والسنة في شأن اليهود وأذيالهم ، وأعداء الله بعامة ـ : إعلان واضح جدُّواضح لهذه الحقيقة، وتأكيد لها أيَّ إعلان وتأكيد !! والآيات التي أشير إلى أن هذه الواقعة التي يدار حولها الحديث : كانت سبب نزولها هي قول الله تعالى ـ كما سبق ـ : ﴿ **يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون . وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون . ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم**﴾ تلا ذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿**يختصُّ برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾ .

وبعد أن وقفنا في الماضي القريب على قبسات من هدي الآيات التاسعة

والستين والسبعين والحادية والسبعين ، لعـل من الخير أن نتابـع اصطحاب الكلمة الهادية في الآيات التي أوردنا ، والتي لها ارتباط بسبب النزول المرويّ عن ابن عباس رضي الله عنهما .

ففي قوله تعالى : ﴿ **وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنـوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهـم يرجعون** ﴾ ما بدٌّ مـن تبيُّن ما أرادت تلك الطائفـة من اليهود ـ حين أمرت الأتبـاع بالإيمان بما أنزل على الذين آمنوا وجـه النهار والكفر آخره ـ. إن الإيمان وهو يقـوم ـ أول ما يقوم ـ على التصديق الجازم بـالقلب ، لا يحتمل هذا العبـث الذي أراده هؤلاء ... إنهم يريدون لأتباعهم المرواحة بين الإيمان والكفـر ؛ فهم مؤمنون ومصدقون وجه النهـار .. ولكنهم ينقلبون إلى كـافرين ملعـونين آخر النهار . مـن هنا كانت للعلماء نظرات في هذا الذي أراده هؤلاء ، وتبيُّن ذلك يسهم في إدراك الملامح العامة للمنهج الذي أراد اليهود سلوكه ، بوصفه سلاحاً من أسلحة المواجهة مع الدعوة الجديدة ، ونبيها عليه الصلاة والسلام والمؤمنين .

فهنالـك اتجاه يفسِّر صنيع تلـك الطائفـة من اليهـود ، بأنهم أرادوا مـن أتباعهم أن يكون لهم موقف معلَن يرضى عنه المسلمون ـ بحسب الظاهر ـ وموقف حقيقيٌّ يقوم على الجحود ، ونفـيِ أي اعتقاد بذلك الحق المنزل على الرسول عليه الصـلاة والسلام . فكان التوجيه، أمراً مـن الطائفة لأن يصِّدق المأمورون ـ وجه النهار ـ النبيَّ ﷺ في نبوته وما جاء به من عند الله ، وأنه حق في الظاهر ، على أن يكون منهم عدم التصديق ـ بالعزم واعتقاد القلوب على ذلك ، والكفر به وجحود ذلك كُلِّيَّةً ـ في آخره .

وكان يـرى من تولى كبر هذا العبـث ، أن ذلك أدعى لتصـديق المسلمين أولئـك اليهود فيما يظهـرون من دعـوى الإيمان ، وأنهم ما رجعـوا عن ذلـك

الإيمان ، إلا لأنهم رأوا في المسلمين ما يكرهون ، وثمرة ذلك ـ فيما تصوّر سدنة الضلال ـ أن يرجع المؤمنون عن دينهم ، ويستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير .

فقد روى الإمام الطبري بسنده عن قتادة في قوله: ﴿ **آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره** ﴾ فقال بعضهم لبعض : أعطوهم الرضى بدينهم أول النهار ، واكفروا آخره ، فإنه أجدر أن يصِّدقوكم ، ويعلموا أنكم قد رأيتم فيهم ما يكرهون ، وهو أجدر أن يرجعوا عن دينهم. وواضح من هذا: أن أصحاب ذلك الرأي من اليهود ، كانوا يرون فيه سبيلاً إلى إغراء المسلمين بالتحوُّل عما أكرمهم الله به من هداية و نور ، فعن أبي مالك الغفاري في هذه الآية ـ كما جاء في " جامع البيان " ـ : قالت اليهود: آمنوا معهم أول النهار واكفروا آخره ، لعلهم يرجعون معكم .

هذا : ويبدو أن الطائفة التي أَمرت بالإيمان وجه النهار والكفر آخره ، لم تكن قصراً على أولئك العتاة الذين ورد ذكرهم في رواية عبدالله بن عباس رضي الله عنهما وهم : عبدالله بن الصيِّف وعديُّ بن زيد والحارث بن عوف ، فهنالك ما يدل على أن أكثر من جهة ، قد أمرت بهذا ، وذلك ما يكشف عن أن هذا المكر العابث ، والاحتيال الخبيث كان لهما وجود عريض في صفوف أحبار اليهود وذوي الرأي فيهم ، فقد روي عن السدي ما يدل على ذلك ، ويوحي بشيء من محاولة الدخول إلى نفوس المسلمين ، من شتى الطرق ، بما فيها الكذب والتمويه وقلب الحقائق ، لعل المحاولة تجدي ولو بالتشكيك .

يقول السدي رحمه الله ـ كما روى عنه شيخ المفسرين في «جامع البيان » ـ كان أحبارقرىً عربية اثني عشر حبراً ، فقالوا لبعض اليهود : ادخلوا في دين محمد أول النهار وقولوا : « نشهد أن محمداً حق صادق » فإذا كان آخر

النهار فاكفروا وقولوا : « إنا رجعنا إلى علمائنا وأحبارنا فسألناهم ، فحدثونا أن محمداً كاذب ، وأنكم لستم على شيء ، وقد رجعنا إلى ديننا فهو أعجب إلينا من دينكم » لعلهم يشكّون ، يقولون : هؤلاء كانوا معنا أول النهار ، فما بالهم ؟ فأخبر الله عز وجل رسوله بذلك .

أجل ! فأخبر الله عز وجل رسوله بذلك ، وخسئت يهود . إن إغراق اليهود في كفرهم الظالم ، وحسدهم وبغيهم على المسلمين ، كل ذلك أعمى أبصارهم وبصائرهم ، وإلا فمنذا الذي ينصاع إليهم في احتيالهم وكذبهم ، ويخفى عليه أن ما يقولونه ـ بعد أن آمنوا وجه النهار وكفروا آخره ـ ضربٌ من التخلخل النفسي ، وأثر من آثار الران المطبق على القلوب ... خصوصاً وأن تصرفاتهم ـ فيما وراء ذلك ـ كلها شاهد صدق على الانحراف ، وأنهم يضمرون للمسلمين كل سوء ، ولا يودُّون لهم إلا الأذى والهلاك .

ولقد تتابعت الروايات على تأكيد ما جاء ، من أن الله أطلع رسوله ﷺ على مكرهم ، وكان ذلك من فضل الله على المسلمين . وما عليهم إلا أن يذكروا الفضل ، فيشكروه بالعمل واليقظة والحذر . جاء عن أبي مالك الغفاري قوله: قالت اليهود بعضهم لبعض : أسلموا أول النهار وارتدوا آخره ، فأطلع الله على سرهم فأنزل الله عز وجل : ﴿ **وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون** ﴾.

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، ونسأله أن يرزق أمتنا العبرة ، كي تحدد نوع تعاملها مع اليهود ، في ضوء ما جاء عن الله ورسوله . ﴿ والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ .



مَعَ النفَاق..

وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ

في حديث عما يضمر اليهود في أنفسهم للمسلمين ، من الودِّ المردي ، والرغبة في أن يتحولوا عن طريق الهدى وسعادة الدنيا والآخرة ، إلى طريق الضلالة والهلاك ، كانت لنا وقفة عند آيات من سورة آل عمران ، هي قوله تعالى : ﴿ **ود كثير من أهل الكتاب لو يضلونكم ..** ﴾ الآيات ، تكشف عن هذه الحقيقة وتربطها بجذورها في تلك النفوس المريضة ، التي أعماها الحسد وإرادة البغي على الإسلام وأهله ، وتومىء إلى ما كان من تأنيب الله إياهم على ذلك ، إذ أنهم يكفرون ، مع يقينهم أنهم على الباطل . ويلبسون الحق بالباطل ، وهم يعلمون ما هو حق وما هو باطل .

كما تكشف عن واحدة من خططهم فيما يطمحون إليه ـ وهم دائبون على المكر والخديعة وتبييت الشر والأذى ـ وهي أن طائفة منهم طلبت من الأتباع ، أن يؤمنوا بما أنزل على الذين آمنوا وجه النهار ، ويكفروا آخره ، لعل هذه الخديعة تنطلي على المسلمين ، فيظنوا بالطرق التي يسلكونها ظن السَّوء ، ويتحولوا إلى ما يريده اليهود عليهم لعائن الله .

إن الذي أوصت به تلك الطائفة من اليهود أتباعها ، لم يقتصر على أمرهم بأن ينافقوا ، ويمكروا في إيمانهم ،فيؤمنوا بما أنزل على الذين آمنوا وجه النهار، ويكفروا آخره ، وذلك بأن يظهروا إيمانهم أول النهار ، ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح ، فإذا جاء آخر النهار ، ارتدوا إلى دينهم ، ليقول الجهلة من الناس : إنما ردهم إلى دينهم نقيصة وعيب في دين المسلمين .

ولكنه تجاوز ذلك إلى أمور أُخر نجدها في قوله تعالى : ﴿ **ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم** ﴾ الآية .

يقولون لهم : عندما تظهرون الإيمان بدين الإسلام : حذارِ أن يُداخلكم شيء من الطمأنينة للمسلمين ؛ هكذا أمروهم ونهوهم ... هناك في الشق الأول ﴿ **آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون** ﴾ وهنا في الشق الثاني ﴿ **ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم** ﴾ لا تصدقوا إلا من اتبع دينكم ، فكان يهودياً لحماً ودماً ، يحمل الحقد كله ، والحسد كله، ولا يضمر للمسلمين إلا السوء والشر ، وجاء عند الحافظ ابن كثير قوله في معنى كلامهم : (لا تطمئنوا وتظهروا سروركم ، وما عندكم إلا لمن كان على اليهودية ، ولا تظهروا ما بأيديكم للمسلمين فيؤمنوا به ويحتجوا عليكم به) . يؤيد ذلك ما روى الطبري بسنده عن السد ي : « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم » قال : لا تؤمنوا إلا لمن تبع اليهودية . وما روى عن ابن زيد أن المعنى : لا تؤمنوا إلا لمن آمن بدينكم . ومن خالفه فلا تؤمنوا له .

ولقد جاء الرد عليهم في قيلهم هذا ، فقال تعالى: ﴿ **قل إن الهدى هدى الله** ﴾ فهذا اعتراض في وسط الكلام يحمل الإخبار عن حقيقة لا يصح التغافل عنها ، وهي أن البيان بيانُه سبحانه وتعالى، والهدى هداه ؛ فهو الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان بما ينزله على عبده ورسوله محمد ﷺ من الآيات البينات والحجج الواضحات ، والدلائل القاطعات المقنعات ، التي لا يدركها منصف ينشد الحق ، إلا آمن .. وذلك كائن، مهما قمتم أيها اليهود بلبس الحق بالباطل ، وكتمتم ما بأيديكم ، من صفة محمد النبي الأمي في كتبكم التي نقلتموها عن الأنبياء الأقدمين .. وحاولت طوائف منكم ، أن تحول دون الناس ، ودون أن يتعرفوا إلى الحق ، ويطمئنوا إلى أهل

الإيمان .

ونتابع اصطحاب الآية الكريمة ، لنقرأ قوله تعالى : ﴿ **أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم** ﴾ والملاحظ أن سائر الكلام في الآية الكريمة بعد قوله تعالى : ﴿ **قل إن الهدى هدى الله** ﴾ متصل بالكلام الأول خبَراً عما قال اليهود بعضهم لبعض ، ومعنى كلامهم على هذا : ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ؛ ولا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين فيتعلموه منكم ، ويساووكم فيه ، بل يتميزون عليكم لشدة الإيمان به ، لأنه من عند الله ، أو يحاجوكم به عند ربكم ، أي يتخذوه حجة عليكم بما في أيديكم من الإخبار بالإسلام ، وبصفة محمد عليه الصلاة والسلام ، فتقوم به عليكم الدلالة ، ولا تبقى لكم حجة في الدنيا والآخرة .

إنهم يتخوفون من ذلك ، مع إصرارهم على الباطل وانطواء صدورهم على الحسد والغل للمسلمين ، والواقع أنهم لا يخافون من إقامة الحجة عليهم فحسب ، بل هم من حسدهم : يعز عليهم أن تكون النبوة في غيرهم . وهذا مما يدل عليه أيضاً قوله تعالى : ﴿ **أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم** ﴾ قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ **أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم** ﴾ حسداً من يهود أن تكون النبوة في غيرهم : وإرادة أن يُتَّبَعوا على دينهم . ولكم تكشف هذه الكلمات الهاديات عما تكنه صدور هؤلاء القوم ، والتطلعات التي يحلمون بتحقيقها ؛ فهم مستمرون على عنادهم وباطلهم ، ويؤذيهم أن تكون النبوة في غيرهم ، ويريدون أن يكون الآخرون أتباعاً لهم ، كل هذا مع يقينهم أن المسلمين على الحق الأبلج دون ريب .

ثم قال تعالى في تمام الرد عليهم ، وبيان عوارهم فيما يدعو بعضهم بعضاً إليه ، حيث الحقد والحسد والضغينة وسوء الظن بالمؤمنين . وأنه هو

المتفضل وبيده الهداية: ﴿ **قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾. قل يامحمد لهؤلاء اليهود : إن التوفيق للإيمان والهداية للإسلام بيد الله ، وإليه دونكم ودون سائر خلقه ، فالأمور كلها تحت تصرفه وهو المعطي المانع ، يمن على من يشاء بالإيمان والعلم والاستنارة ، ويضل من يشاء فيختم على قلبه وسمعه ويجعل على بصره غشاوة ، وله الحجة التامة والحكمة البالغة ، وهو سبحانه أعلم بعباده وبما يصلحهم . والله واسع عليم ، ذو سعة بفضله على من يشاء أن يتفضل عليهم ، ذو علم بمن هو منهم أهل للفضل والعطاء .

والحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ، فكان مما نبه عليه بإسهاب ووضوح ، ما لا يسع الأمة ـ إن عقلت عن الله ورسوله ـ جهله أو تجاهله في شأن يهود ، الظاهرين منهم والمستخفين .

وصلى الله وسلم على من بيّن للأمة ، بقوله وفعله ، المنهج الذي عليها سلوكه على صعيد الولاء والبراء ، ومواجهة التحديات ـ بشتى صنوفها وألوانها ــ مما يعلن أعداء الله ، أو يبيتونه ، وعلى آله وصحابته ومن تبعهم بإحسان ؛ علماً وعملاً وجهاداً في سبيل الله إلى يوم اللقاء .

الفهرس